نصيحة ...

لا تقرأ هذا الكتاب إذا كنت من الذين :

(١) يطلقون التعميمات ويتخذون منها قواعد لتفكيرهم ، مثلاً: كل اليهود أولاد كذا وكل الأمريكان أولاد كيت ... إلخ ، نحن هنا فـــى سبيل ممارسة التفكير العقلانى القائم على المنطق ، أنا لست على أى درجة من الاستعداد لأن أمتلئ بغضاً لجنس بأكمله أو لفئة اجتماعية من أولها لآخرها ، اليهود بشر فيهم من يستحق البغض ومنهم من ... حسنا ، لا يستحقونه.

(٢) يميلون إلى التعليل الميتافيزيقى ويستغرقون فى الخرافات، اليهود جن خفى، إنهم وراء كل ما يقع فى هذه الدنيا. الزلازل التى حدثـــت فـــى أسوان والقاهرة كانت من تدبيرهم، موجة الحر التى نعـــانى منها هم الذين صنعوها بالتعاون مع ال "سى- آى- ايه" ، إلى آخره. وقد رأيناهم يأخذون بـــ" الصرمة القديمة" سنة ١٩٥٦، من حلفائهم الأمريكان، وكان ممكناً أن ينالهم المزيد ، وهذا الكتاب يظهـــر ـــ أو هذا واحد من أهدافه ـــ كيف أننا نحن الذين وضعنا لهم ما يريدونه على صينية من الذهب وقدمناه لهم.

(٣) يؤمـــنون بأيديولوجـــية ثابـــتة فـــيها وصفة لكل أوجاعنا ومشاكلنا كان ترفع شعار "حتمية الحل الاشتراكي" أو "الإسلام هو الحـــل" ـــ العقائد شيء واستخدامها فى استعباد الناس بالممارسات الفاشســـتية ، شيء آخر . الخالق أعطانا عقولاً لكى نفكر بها، لا لنســـلمها لأمثال تشاوشيسكو أو بن لادن ، هؤلاء كلهم دجالون لا يؤمن الواحد منهم بحرف واحد مما يبشر به .

(٤) يجدون لذة فى حل المشاكل بمجرد فقدان الشعور بوجودها إنكار المشكلة لا يؤدى إلى اختفائها، سوف تعـــود إلـــى الظهـــور

وتــرغمك على مواجهتها بقدر من الألم يتفوق على فقدانك للقدرة على الإحساس.

(٥) يقدسون الحكام ويعدونهم آلهة لا يُسألون عما يفعلون مهما كانت الكارثة التى تنال شعوبهم من جراء جهلهم وحماقتهم، هناك إله واحد فى هذه الدنيا وهو فوق ، فى السماء . نحن نعيش عصراً تطــور فــيه ســلوك البشر نحو حكامهم وأصبحوا يرونهم على حقيقــتهم الــتى رآها الضرير أبو العلاء المعرى ، عندما قال من ألف سنة أنه سئم الحياة فى أمة "أمرت بغير صلاحها أمراؤها" ، وكيف أنهم "ظلموا الرعية واستباحوا كيدها ــ وعدوا مصالحها ... وهــم ... أجــراؤها !" ــ نعم ، الحاكم أجير لدى الشعب، تماماً كناظر الزراعة، مطلوب منه أن يحقق صالح شعبه وإلا أتى بغيره وحاسبه على أخطائه . ثلاثة رؤساء أمريكيون قدمُوا للمحاكمة فى قــرن وربــع ، وهم جالسون على مقعد الحكم ، هيلموت كول ، رئيس وزراء ألمانيا الذى حقق معجزة الوحدة ، بسمارك الجديد ، لــم تشفع له إنجازاته العظمى، وقدم إلى المحاكمة، لا بتهمة إنشاء خزيــنة فى بيته ليوزع الملايين على محاسيبه ، بل بتهمة "إساءة اســتخدام ١,٢ مليون دولار تلقاها كتبرعات للحزب الديمقراطى المســيحى الذى يرأسه وانتهى الأمر بأن دفع غرامة تعادل نصف ملــيون جنيه مصرى من جيبه. ولا يقتصر هذا على أوربا، عبد الواحد فى إندونيسيا ، إسترادا فى الفلبين ، كل هؤلاء امتدت إليهم عصــا التأديب. تأمل ما فعلته القيادة الفلسطينية بشعبها وما تزال تفعلــه إلــى هذه اللحظة ! اتهموا عبد الناصر بالخيانة لأنه أعلن موافقته على مشروع روجرز، ثم رفعوه إلى مرتبة قديس . اتهموا الســادات بالخــيانة ووزعــوا الشربات عند اغتياله ورفضوا أن يشــاركوا فى محادثات مينا هاوس حيث كان لهم مقعد مخصص وعلــم مــرفوع ، ثم ذهبوا إلى نفس المكان : كامب ديفيد (اتفاقية اســطبل داوود الخيانية كما تسميها إذاعة دولة عربية لا تشير إلى

إسرائيل إلا بعبارة : قطعان الهمج الصهاينة ... إلخ) ، وعادوا من كامب ديفيد بالخيبة . أثناء كل هذا الرفض لجهود السلام ، كان ما يقـــرب من ربع مليون إسرائيلى قد استوطنوا الضفة وغزة ، من المسؤول عن هذا ؟ كل الناس إلا الوحيد الذى هو مسؤول . نفس هذا المسؤول أعلن وقوفه إلى جانب صدام حسين فى عدوانه على الكويت والسعودية مما أدى إلى خراب بيوت عشرات الألوف من الفلسطينيين الذين أقاموا حياة جديدة ورغيدة فى بلدان الخليج . من المسؤول عن هذا الأذى الماحق ؟ كل الناس، إلا المسؤول .

ولا حول ولا قوة إلا بالله !

كنـــت أشـــاهد تليفزيون "بى ــ بى ــ سى" منذ أسابيع ، وكان واحد من "وزراء" السلطة يجيب على أسئلة المذيع تيم سيبا ستيان، مضـــى المذيـــع يستجوبه بشأن ما يشاع عن تبديد أموال السلطة الفلســـطينية على البذخ والطائرات الخاصة وعما يشاع عن نهب أموال الشعب الفلسطينى ، هذا بالضبط هو التعبير الذى استخدمه المذيع "pocketing " ، يعنى دسها فى الجيوب ، كان "الوزير" قد بدأ يتحدث عن الاحتلال ، "نحن محتلون" ، مضى يجيب على كل هـــذا بهذه العبارة : "نحن محتلون" – "نحن محتلون" ، أما دعاوى النهب والسلب ... فهم معذورون فيها ، لأنهم محتلون .

بعـــد كل هذا مطلوب من الناس أن يموت أولادهم فى معارك غير متكافئة وغير مجدية ، ومطلوب منى أنا كمواطن فى بلد مثل مصـــر، حيث المواطن كما يصفه يحيى حقى فى قنديل أم هاشم : "بولـــــه دم وبـــرازه ديدان"– مطلوب منى أن أنام على البغضاء وأصحو على الكراهية. لآ ، هاتوا زعماء أكفاء ومخلصين أولاً ، وسأكون، وأنا فى أرذل العمر، على استعداد لأن أموت معهم فداء لوطنى ، وليس فداء لهم .

هـــل لدى هؤلاء الهمج أغنية تقول "أنا شفت بنجوريون والنبى يامة ؟" ــ الواقع أن بنجوريون ، مؤسس دولة إسرائيل، واشنطون

إســرائيل كما يعدونه، سقط من رئاسة الوزارة بسبب خطأ وزير دفاعه لافون، فى فضيحة لافون كما تسمى، لا سرق ولا نهب ولا خــرب الــبلد ولا أودى بشــغبها إلــى أسوأ مصير. هذا هو لب موضوعنا.

الحق والقوة ...

"اسمعونى إذن ... إننى أعلن أن القوة هى الحق، وأن العدالة هى ما يحقــق صالح الجانب القوى . إن مختلف أشكال الحكومات تسن القوانين ، ديموقراطية، أرستوقراطية ، أوتوقراطية ، طبقاً لما ترى أنه يحقق مصالحها، وهى تفرضها على الشعوب بوصفها هى "العدالة" – وتــنزل العقاب بمن يخالفها بأن تصفه بالظلم والافتراء ، أنا هنا أتحــدث عن الظلم على نطاق واسع ، والذى أقصده سيكون فى أوضــح صــورة له فى الأتوقراطية ، التى تلجأ إلى الاحتيال وإلى الــبطش لكى تصادر مال الآخرين وحقوقهم ، لا بالتجزئة ، بل بالجملة . والآن ، عندما يأتى رجل ويستولى على أموال المواطنين ثم يحيــلهم إلى عبــيد أرقــاء ، فإنه بدلاً من أن يوصف بأنه لص ومحتال، فإنه يحظى بالسعادة والمباركة من الجميع . وهذا لأن الذين يشكون من الظلم ويذمونه هم أولئك الذين يخشون أن يقع عليهم وأن تغولهم عواقبه ، وهو لن يكون ظلماً أو عدواناً عندما يكون فى طائلتهم أن يرتكبوه فى حق غيرهم" .

السوفسطائى ثراسيما خوس

محاورات أفلاطون ٣٣٨ – ٤٤

لست أدرى لماذا أجد فى هذه الفقرة أكمل وأشمل وصف لمأساة الشــعب الفلســطينى! لعلــه ما تتصف به من استطراد ، فهى لا تعــرض لمشــكلة الأخــلاق فحســب، بــل أيضاً لمشكلة القيادة والأوتوقراطــية. وهذان يصلحان تصنيفاً لما نحن بصدده ! حقاً، هــل نتجت المأساة عن عدوان اليهود على العرب، والذى يأتى ــ

كما أظن أنه لابد أن يكون الآن واضحاً تماماً بعد نصف قرن من التجارب، وبعد أن مات القادة والزعماء من الجانبين وجاء غيرهم ثم غيرهم ــ يأتى من أنهم هم الجانب القوى فى هذا الصراع العجيب، هل نتجت المأساة عن أنهم هم الأقوى وبالتالى فهم يفرضون إرادتهم ويصبحون هم الحق والعدالة؟ أم أنها نتجت عن الأوتوقراطية التى تسود من هم "أبناء عمومة" الجانب المعتدى عليه ــ وسنأتى لذلك حالاً، والتى تجعل... حسناً، بعض الشعوب، لن نقول كلها ، لكى لا نقع فى المحظور ، يجعل الشعوب التى هبت لنصرة المظلوم، تبدو أمام العالم أنها ــ كما يقول أفلاطون ــ تعانى من الأوتوقراطية وتعامل من حكامها معاملة العبيد، بعد أن نهب هؤلاء الحكام أموالهم وساقوهم كالخراف إلى... إلى مصير شعب العراق مثلاً، هذا المثال هو الوحيد الذى يمكننا أن نأتى به هنا ونحن مطمئنون. حقاً، يا له من خطأ فادح نقع فيه عندما لا نرى من هذه المأساة سوى عدوان القوى على الضعيف ، دون أن نحاول أن نسأل أنفسنا عن طبيعة القوة والضعف، والسبب فى هذا وذاك ؟

سوف نمضى الآن فى استعراض المشكلة برمتها ، وليس مجرد الانفعال لحادث وقع أمس أو سيقع غداً ، فالتاريخ ليس أياما منفصلة ، إنه متوالية عددية، لا يمكنك أن تصل إلى خمسة دون أن تمر على أربعة ، وإذا أردت أن تحذف أربعة فاعلم أن حساباتك مختلة وخاطئة.

بالضبط ما هو الموضوع ؟

عندما نشبت حرب ١٩٤٨كنت أنا طالباً فى السنة النهائية بكلية هندسة جامعة فؤاد الأول كما كانت تسمى إذ ذاك ، وصدر أمر بتكليف جميع الخريجين من تلك الجامعة ومن جامعة فاروق الأول بالإسكندرية، كما كانت تسمى أيضاً، وخدمت فى سلاح المهندسين

منذ ذلك الوقت لغاية ١٩٧٠وبالطبع حضرت الكثير من الوقائع الحربية خصوصاً ١٩٦٧، وبالتالى فلست واحداً من شباب اليوم الذين لا يعرفون بأمر هذه الأحداث إلا مما يوضع فى أذهانهم كما توضع اللقمة فى فم الرضيع فلا يجد بديلاً عن ابتلاعها.

خلاصة القول أننى عاصرت هذه الأحداث وأزعم أننى أعرف الكثير بحكم الظروف ، وعندما قامت "الحركة المباركة" سنة ١٩٥٢اتصل بى ضابط كبير من قيادة سلاح المهندسين وقال لى إن المخابرات الحربية طلبت منه مندوباً ليكون عضواً فى لجنة تمثل فيها جميع الأسلحة وأنه قد رشحنى. ذهبت لمقابلة رئيس هذه اللجنة وكان أحد معاونى "البكباشى زكريا محيى الدين" الذى كان يرأس جهاز المخابرات إذ ذاك، وشرح لنا جميعاً أن مهمتنا هى أن نمر على دواوين الحكومة ونحن مسلحون بالطبنجات وبتحقيق شخصية مذكور فيه أننا "مندوبو القيادة" ــ وأن نبلغ عن كل وكيل وزارة مثلاً ليس جالساً إلى مكتبه ... إلى آخره . قضيت خمسة أيام فى هذا العمل الغريب بدت لى خمس سنوات، وقدمت لرئيس اللجنة ــ الذى أصبح بعد ذلك سفيراً فى الخارجية ــ مذكرة قلت فيها أن هذا العمل لا يناسبنى ولا أنا مقتنع بهذا الأسلوب.

أذكر هذه القصة لمجرد أن أدلل على كراهيتى للانتهازية وللارتقاء على أشلاء الآخرين، وهل غياب وكيل وزارة عن مكتبه يدل على إهماله أو وجوب تحطيم مساره الوظيفى، منذ متى؟

أنا مجرد مواطن مصرى عادى يحب الصدق والحقيقة، والتحليل المنطقى. فما هى بالضبط قصة ما يسمى "الصراع العربى الإسرائيلى" ؟

مناسبة هذا التساؤل كانت ــ وقد يبدو هذا غريباً ــ كانت حصول صديق عزيز على جائزة الدولة التقديرية . وفى تلك المناسبة شاركت فى الاحتفاء به فى جمع صغير من الأصدقاء.

أثـير بالطـبع موضوع مأساة الشعب الفلسطينى والأطفال الذين يموتون برصاص جنود الاحتلال.

وسـمعت من المحتفى به رأيه الذى سبق أن سمعته منه مرات عديـدة، وهو يصف مشكلة فلسطين دائماً باستخدام كلمة "الزرع"، بمعنى أن أمريكا جاءت إلى بلادنا وزرعت فيها هذا الكيان الشاذ ــ وعـندما أقـول له أن الذى أدى إلى هذا هو الفجوة الحضارية التى تفصل بيننا وبين العالم المتقدم ــ الذى تنتمى إليه إسرائيل ــ وأنني من هذه الوجهة ، لا أرى فارقاً بين الإسرائيليين والإنجليز فإنه يسارع بالقول بأن هؤلاء ليسوا محتلين ، بل إنهم مستوطنون، ليسـوا جيشاً يمكن إجلاؤه ، بل إنهم زرعوا فى وطننا كما تزرع الشجرة الخبيثة . ثم يشير إلى مواضع من سفر الخروج وغيره فى التوراة تدل على مدى وحشية اليهود وتدلل على ذلك بما فعلوه فى سـقوط أريحـا وغـير ذلـك ، وكيف أنهم لا يقفون عند حد فى ممارسة سفك الدماء ، ولا يفرقون فى هذا بين البشر والبهائم. ثم يمضـى الصديق العزيز فى هذا فيشبه الإسرائيليين باللصوص ، ويقول لى : ماذا تفعل لو أن لصاً اقتحم بيتك وقعد فيه ؟ هل تستلم لهـذا الوضع ؟ ما الذى فعلته أنت نفسك عندما تسلل الغرباء إلى بيتك فى العجمى ؟ هل سكت على هذا ؟

الذى يعنينا من هذه التشبيهات هو ما أنوى أن أدلل عليه مـن افـتقارها إلـى الدقة . وسوف أبدأ بقصة بيتى فى العجمى ، وهو "شاليه" استأجرته من واحد من أعراب المنطقة المسماة "البيطاش"، وهـذا بـاع العقـار لشخص آخر حاول إغرائى بشرائه ولكننى رفضت أن أشترى شيئاً لا وجود له إلا فى الهواء ، وهذا ما حدث لشخص آخر بنوا له دوراً علوياً وباعوا له البيت ــ ولغيره أيضا، خلاصـة القـول إن شخصاً معه عقد بيع لهذا العقار رفع دعوى صـحة ونفاذ وحصل على حكم بذلك ، وكنص القانون فإنه يطلب من المحكمة تمكينه من دخوله لأنه مغلق ، وعندئذ تأمر المحكمة

المباحث بأن تتحرى عن سبب الغلق ، ولأن هذا المكان مغلق معظم السنة لأننا لا نأتى إليه إلا فى الصيف فقد أفادت المباحث بأنه مغلق لوجود نزاع على الملكية، وليس لأن شاغليه غير موجودين الآن ، وفى هذه الحالة يأمر القاضى بفتح المسكن عنوة وجرد محتوياته وتسليمها له على قبول الأمانة، وهو يعرف جيداً أن الأمانة منعدمة فقط لا حيلة له فى ذلك.

وهكذا اتصل بى جيرانى فى المصيف ليقولوا لى أن غرباء يجلسون فى شرفة بيتنا وعلى مقاعدنا ويرتدون ملابسنا ويستمتعون بمخزون الشاى والقهوة فى أكوابنا ، وأن شريكهم ونديمهم فى هذا هو البدوى الذى استأجرنا منه البيت أول الأمر.

نصحنى البعض بأن أقتحم البيت وألقى بهم إلى الشارع ، فهذا مسكنى وهذه ممتلكاتى أنا وزوجتى ــ وبأن آخذ معى اثنين أو ثلاثة من الفتوات المستأجرين لحمايتى من بطشهم أو اعتدائهم إذا حدث . إلا أننى كنت قد سمعت بموضوع البيع، وبالتالى فهمت أن هؤلاء الأشخاص لابد مسلحون بمستندات قانونية تدل على امتلاكهم له ، صحيح أنهم قد "استعبطوا" وتظاهروا بأنهم لا يعرفون أننى مستأجر للدور الأول ، ولكن هذا لا يجعلهم لصوصاً فى نظر القانون ، فقد دخلوا البيت بحكم محكمة ، تماماً كما دخل اليهود فلسطين بقرار من الأمم المتحدة، هؤلاء وهؤلاء لصوص ومعتدون من الوجهة الأخلاقية ، إلا أنهم ليسوا كذلك من الوجهة القانونية ، وإذا لجأت إلى القوة فى اقتحام المسكن فسوف يعمل بالطبع محضر وقد يجد المحقق ــ أو القاضى فى النهاية ــ أن تصرفى لم يكن قانونياً ، وربما يقول لى : "لما أنت يا أستاذ صاحب حق ، لماذا لم تلجأ إلى القانون؟" ، وإذا تصادف أن الصدام أدى إلى إصابات أو خسائر مادية أو ــ لا سمح الله ــ بشرية، فإن القاضى قد يجد أننى أنا المذنب ــ دفاعى سيكون أننى شاغل لهذا المسكن ومعى ما يثبت ذلك . قلت لنفسى : إذا كنت

سـوف أضـطر لأن أثبت حقى فى شغل المسكن وإلا فسأبدو أنا المجرم وأنا المعتدى ، فلماذا لا أبدأ من هنا ؟ لماذا لا أبدأ بإثبات حقى أمام القانون؟ ذهبت إلى الشرطة فأوفدوا معى مندوباً استدعى الشـخص الذى كان بالداخل، وجاء معه عقد البيع وقرار المحكمة بفتح المنزل عنوة، أقفلنا المحضر وتحول إلى النيابة حيث قال لى رئيسـها أنـه لا حيلة له أمام اقتحام المسكن بحكم محكمة ، لو لم يكـن هـناك سند قانونى لكان أصدر قراراً بالقبض على هؤلاء الأشخاص وتسليمى المسكن ، وأضاف : "حقك واضح ولكن لابد مـن رفـع دعوى" ــ وهذا ما عملته ، دعوى مستعجلة ، وصدر الحكم بتمكينى من المسكن بعد ستة شهور من إقامتها ، وبدلاً من أن أقـتحم البيـت محاطاً بفتوات يلبسون الجلاليب، ذهبت ومعى محضـر ، و فى حماية قوة من الشرطة وتصادف أن قائدها كان ضابطاً شاباً اسمه محمد حازم ، رأيت على مكتبه ونحن فى قسم البـيطاش كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى، وفى الحال وكما هو معتاد حدث التعاطف المعتاد بين الأدباء ، خصوصاً وأن الأمر كـان روتينياً تماماً ، فما عليه إلا أن يلبس الطبنجة وينادى على مساعديه ... وهذا بالضبط ما حدث . دوره فى الموضوع ليس له دخل بالنزاع الأصلى .

إلا أن هذا لم يكن ما حدث فى موضوع فلسطين . الذى حدث هـو اتـباع طريقة "الفتوات"، وبدون أى ترتيب أو استعداد. كان الإنجليز ما يزالون فى مصر، بل ويقال أنهم كانوا يمدون الجيش المصـرى بالذخيرة من مخازنهم فى قاعدة القناة ، والقوات طبعاً لابـد أن تعـبر القناة وتتقاطع معهم فى طريقها إلى فلسطين، أما الجيش الأردنى فكان قائده إنجليزياً هو الجنرال جلوب باشا، وكان الضباط الإنجليز ينتشرون فى وحداته، إذا أضفت إلى كل هذا أن الإنجلـيز هـم الذين أصدروا وعد بلفور سنة ١٩١٧، الذى ينص على إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين (النظر بعين العطف ...

إلـــخ ، كـــان هو النص المستخدم)، وإذا أضفت إلى هذا أيضاً أن فلســـطين كانت تحت الانتداب البريطانى لغاية إعلان قيام الدولة الـــيهودية سنة ١٩٤٨بمقتضى قرار الأمم المتحدة الذى صدر فى أواخر العام السابق لها ، وإذا أضفت أن جولدا مائير كانت تتردد علـــى قصر الرغدان فى عمان وتقضى أياماً ولياالى فى التفاوض مـــع الأمير عبد الله الذى أصبح الملك عبد الله ، وهى أمور تألفت عـــنها الكتب، وكما هو معروف فإن الملك اغتيل بأيدى مجموعة فلســـطينية اتهمته بأنه تعاون مع اليهود على اقتسام فلسطين، وإذا أضفت الوقائع التى تلت ذلك ومنها هجوم الإسرائيليين على مصر، واحـــتلالهم أبـــو عجـــيلة ، وتقدمهم نحو العريش (وفى منتصف الطـــريق بيـــن أبـــو عجيلة والعريش كانت توجد دبابة إسرائيلية محـــترقة ، ورأيـــتها فـــى إحـــدى زيـــاراتى أثناء عملى بسلاح المهندسين) ــ ثم أنه بعد ذلك تقابل المصريون مع الإسرائيليين فى روديس وأبرمت أول اتفاقية هدنة بينهما وبمقتضاها انفك الحصار عن قواتنا الموجودة على الشريط الساحلى من غزة إلى العريش ، إذا أضفت هذا كله ستجد أنه لا يوجد أدنى شبه بين حرب ١٩٤٨ -١٩٥٠، ومعركة العجمى التى خضتها أنا وخرجت منها منتصراً . ولـــو أن مصـــر ومعها الدول العربية لجأت إلى الطريق الذى اتبعته أنا وهو التعامل مع المشكلة بالقانون وتجنب أسلوب الفتوات ــ خصوصاً إذا كان الخصم هو أيضاً مزوداً بالفتوات بل ومتفوقاً عليـــنا جـــداً فى هذا الجانب ــ ولو أن هذه الدول استمعت لآراء حكمائها من السياسيين من أمثال إسماعيل صدقى مثلاً ، والحبيب بورقيـــبه ، بل والملك عبدالله الذى لم يكن موقفه سوى تمثيل فى تمثـــيل ، لكانت إسرائيل قد قبعت فيما هو مخصص لها فى قرار الأمـــم المتحدة ، وهو ما لا يتجاوز عشرة فى المائة مما هو لديها الآن، يتساوى فيه سكانه من اليهود مع سكانه من العرب ، أقل من نصـــف ملـــيون لكـــل منهما بل إن هذا عاد وحدث سنة ١٩٥٦

وتحولت إسرائيل إلى حارة يهود كبيرة وفرضت عليها العزلة عندما ضربها أيزانهاور بالصرمة القديمة ومعها بريطانيا العظمى وفرنسا التى كانت عظمى هى أيضاً.

إلا أن هذه حكاية جديدة يحسن أن نبدأها من بدايتها، و يالها من مهزلة يندر أن تجد لها مثيلاً فى التاريخ، قديماً كان أم حديثاً !

ثعابين ، هذه المرة :

بعد اللقاء المذكور بيومين ، اتصل بى صديقى المحتفى به مرة أخرى ، وطلب منى قراءة عامود فى الأهرام بقلم الصديق الكاتب الصحفى أحمد الفقيه، فى أهرام ٢٠٠١/٧/١٩، يعنى قبل عيد الثورة المجيدة بأربعة أيام فقط. أخرجت نفسى من حالة التأمل الصوفى التى تنتابنى كلما حلت ذكرى الحركة المباركة ، وتجعل روحى تغوص فى أعماق من الطهارة الثورية لا مثيل لها فى بقية مشاعرى . وأكاد أقترب من "الإلهام" الذى هبط على القائد العظيم عندما أمر بحشد قواته فى مايو ١٩٦٧، نعم ، هذا هو التعبير الذى استخدمه صفيه المقرب سامى شرف، ورواه من سمعوه منه عندما سألوه عن الموقف ! "هذا إلهام جاءه" ، جاءه كالوحى من السماء.

أنا لا أقرأ كل شىء فى الجرائد ولا أقرؤها كلها ، لم يكن هذا العامود قد فاتنى ، فعليه صورة الأخ الفقيه وهو صديق شخصى وعزيز، فقط لم أكن قد قرأته بعد .

العنوان هو "مع الاعتذار للأفاعى" ــ وهو لا يذكر لا إسرائيل ولا فلسطين بالاسم، إنه.فقط يحكى عن صاحبه الذى تسللت الأفعى إلى حديقته وحاول قتلها فلم يستطع، فدعا أبناء عمومته لمعاونته بكل ما لديهم من عصى وفؤوس ، وعندما أصيب واحد منهم بلدغة منها، (ليس واضحاً لى هل هذا الواحد هو صاحب الحديقة أم واحد من الذين هبوا لنجدته ، الكلام صحيح فى كلتا الحالتين على أى حال) ، تركوه يلقى مصيره وحده مسلحاً

بالحجارة .

حسناً ، أنا لا مانع لدى إطلاقاً أن نصف الإسرائيليين بأنهم لصوص أو بأنهم ثعابين ، وأن نعتذر للثعابين عن هذه الإهانة. لا مانع لدى بأن نصفهم بكل ما لا يمكن وضعه على الورق ، الذى لدى مانع منه هو أن يكون هذا كل ما نظن أننا نعرفه عنهم ، وأن نتعامل معهم على هذا الأساس ، لدى ألف مانع ومانع من أن تكون معلوماتنا عن أعدائنا مجرد قصائد من الشعر المنثور، وركيكة أيضاً .

شيء اسمه الناصرية :

"ماركس الذى نسبت إليه الشيوعية لم يكن حاكماً، بل كان صاحب فكرة، أما عبد الناصر فكان حاكماً وليست له فكرة معينة ثابتة ، ولكن هناك من يقولون أن هناك شيئاً اسمه الناصرية من منطلق التقليد للماركسية . ولعبد الناصر أكثر من كتاب قامت عليه الناصرية ... له فلسفة الثورة ، وله بيان ٣٠ مارس، وبذلك فهو من حيث المبادئ والأفكار ، أثرى إنتاجاً من ماركس".

"جمال عبد الناصر عندما قرر دخول حرب اليمن ، لم يكن قد قرأ كتاباً واحداً عن اليمن ، وكل معلوماته جاءته من رجال يمنيين أو دخلاء على اليمن لكل منهم مصالح خاصة .

وقد قرأت كل ما كتب عبد الناصر وقال ، فلم أستدل على أن الرجل قرأ قراءة تذكر .. بل لا أظن أنه قرأ كتاباً كاملاً خارج كتب الكلية العسكرية . وكتاب فلسفة الثورة الذى وضعه وكلفنا ترجمته إلى كل لغات العالم وطبعناه بالألوف هو دون شك أكثر كتب الفكر السياسى العالمى سطحية ، والدوائر التى رسمها كلها وهمية ، وهو نفسه لم يكن يعرف معناها الحقيقى " .

د. حسين مؤنس : "باشوات وسوبر باشوات"

ـ أن المهمة الكبرى لحامل القلم والفكر ، هى الكشف عن وجه الحقيقة.

ـ أدهشنى بعد ذلك ما جاء فى بعض الصحف العالمية : أن كتاب فلسفة الثورة هذا تتولى توزيعه فى الخارج جهتان فى نفس الوقت : السفارة المصرية والسفارة الإسرائيلية.

ـ كان عبد الناصر فى أوائل عهده قد أعد خطبة يلقيها ويعلن فيها خطة أو رؤية للسلام فى المنطقة ، غير أنه سمع من السفير الأمريكى وقتئذ ، كلمة استقبله بها فى زيارة فلم تعجبه الكلمة ، وانفعل وغير خطبته واتجاهه فى الحال . وكان لهذا المسلك الانفعالى تأثيره على مصير الوطن كله ... كما سارت الأمور كلها بعد ذلك فى شؤون الدولة خارجها وداخلها على هذا المسلك وبهذا المحرك ! انفعال ورد فعل.

ـ كانت قبائل اليمن التى نريد استمالتها إلى جانبنا لا ترضى بغير الذهب، فكانت تلقى إليهم من طائراتنا الزكائب الممتلئة بالأصفر الرنان . كما كانت ترمى من الجو لجيوشنا أطنان التموين والغذاء من صفائح الجبن الفاخر والمعلبات واللحوم والفاكهة ، ولكن الشمس الحارقة وعدم وجود ثلاجات كان يفسد الأطعمة فتترك فى أماكنها مكدسة وقد لعب فيها الدود وانتشرت فيها رائحة العفن فلا يقربها أحد ، وأهل مصر من الجياع والمحرومين لا يعرفون أن طعامهم هذا الذى يتمنونه ملقى للحشرات على تراب اليمن السعيد . وكانت القبائل تأخذ ذهبنا بالنهار وتصطاد ضباطنا فى الليل وتجز رؤوسهم وتبيعها للطرف الآخر. غطاء الذهب الذى نملكه قد ضاع بأكمله فى هذه الحرب الضائعة .

ـ يجب إبعاد شخص الزعيم عن كل مسؤولية ، فالمسؤولون دائماً هم الآخرون، وهكذا استمر هو فى كرسى الحكم على مصر والزعامة الناصرية على العرب جميعاً – تلك الزعامة التى خربت مصر ونكبت العرب.

ـــ إن فكـــرة الزعامة على العالم العربى هى التى أضاعتنا جميعاً ، وهـــى التى استحوذت على فكر عبد الناصر وجعلته قوة مدمرة لنفسه ولمصر وللعرب.

ـــ ألوان من التعذيب بلغت فظاعتها مبلغ الأساطير.

ـــ كـــان الانســحاب فى حرب ١٩٦٧ باهظ الثمن ، فظيعاً فى مـــنظره ونـــتائجه وآثاره ... بل كان فى رأى الخبراء العسكريين مجزرة بشرية رهيبة ، فالأمر بالانســحاب السريع لجيش كبير انتشر فى الصـــحراء واتخـــذ مواقعه بمعداته على مدى أسابيع ، ودعوته لـــلجرى حافـــياً تحـــت وابل من نيران العدو لهو قرار أهوج من مسؤول فقد أعصابه ويستحق المحاكمة.

ـــ دفعـــتنى المشاعر ودواعى الوفاء فاقترحت إقامة تمثال له فى ميدان بالقاهرة ، جاءتنى خطابات من بينها واحد يقول فيه صاحبه أنـــه موافق على إقامة التمثال ولكنه يرى أن يكون مكانه ليس فى القاهـــرة بل فى تل أبيب، لأن إسرائيل لم تكن يوماً تحلم بأن تبلغ بهـــذه السرعة هذه القوة العسكرية ، ولا أن تظهر أمام العالم بهذا التفوق الحضارى ، إلا بفضل سياسة عبد الناصر .

توفيق الحكيم : "عودة الوعى"

هل من الضرورى لكل حاكم أن تكون له "فلانية" ؟

كالماركسية واللينينية و"الكوكتيل" المشهور، الماركسية اللينينية التى طبقت أوعلى الأقل حدث تظاهر بتطبيقها فى أماكن عديدة ، مـــن روســـيا إلى ألمانيا الشرقية ورومانيا وكوبا ، بل فى اليمن الجنوبـــية ... والنتائج أوضح من أن تتطلب أدنى تعليق ، وسوف يشهد من يبقون أحياء ، مصير كل هذه الأماكن ، فيما عدا ألمانيا، الـــتى تحولت إلى خراج متقيح فى جسد ألمانيا الموحدة ، وبالتالى فإنهـــا سوف تنعم بـــ "وحدة المصير" الذى لا تكف صحافتنا عن الحديث عنه ، وسنأتى لذلك .

هل هذا ضرورى ، أن يتحول الدكتاتور إلى أفلاطون زمانه؟

وهل هناك بسماركية وتشرشلية وروزفلتية ؟ ولماذا لا يقنع حكام دول لـــن نذكـــرها بالاســـم ، بما قنع به هؤلاء الحكام الذين أنقذوا شعوبهم من الهلاك ؟ أنه حتى الإمبراطور اليابانى العظيم "ميجى" ، واسمه الحقيقى هو "موتسوهيتو" ، لم يخرج على العالـــم ولا زعم أتباعه أن هناك شيئاً اسمه "الميجية" أو "موتسوهيتية" .

لقـــد عشنا لنرى فلسفات توضع لتكون مواثيق لمستقبل البشرية، تنســـب لأســـماء نفر لا يعدون أن يكونوا أنواعاً من الفتوات ذوى الـــنوادر والحكايات، تأمل كيف اتخذ قرار توريط مصر فى حرب ١٩٦٧ وحاول أن تتساءل ! ترى أى حساب عمل قبل اتخاذ خطوة كهذه ويا ترى ماذا كان مستوى دراية من اتخذه..لا بأحوال العالم، بل درايته بأحوال بلـــده وقواتـــه ؟ شراء الترام فى أروع صوره!

ـــ احنا جاهزين يا عبد الحكيم ؟

ـــ برقبتى ياريس .

هـــذا كـــل ما دار فى اجتماع نشرت الصحف أنه استمر أربع ســـاعات، وصـــدرت تصريحات تؤيد صحته ، منها ما رواه نائب الرئيس حسين الشافعى وهو يدين المارشال ويحمله المسؤولية .

إذا كـــان قدرنا أن توجد كلمة كهذه، الناصرية نسبة إلى ناصر، كما أن الملوخية منسوبة إلى الملوك، فلنتأمل فى مضامينها لعلنا نجد شيئاً. طبعاً كان مفروضاً أن تكون "العتريسية"، عبد الناصر نفسه لا ذنب له فى الموضوع. .

تتمـــثل الفلســـفة الناصـــرية ـــ فيما يحكى ـــ فى كتاب "فلسفة الثورة"، الذى لا يبدو لى أنه يزيد على صفحات من الشعر المنثور، بـــالغ الركاكة متهالك اللفظ والمعنى ، يتحدث عن ثلاثة آفاق للعمل الوطنى والسياسى ، إفريقيا والعالم الإسلامى ثم العالم العربى، الذى هو جزء من الإسلامى طبعاً ، وهذا ما جعل سفارة إسرائيل توزعه فـــى كـــل بلد هى فيه لترى العالم أن فى مصر حاكماً مستبداً يحلم

بالـنفوذ فـي هـذه الدوائر الثلاث ، وقد اقتنع العالم بذلك كما هو واضح من النتائج.

ثـم هـناك مبادئ الثورة، التى يدرسها الأطفال المصريون فى المـدارس، وهى تبشر بالقضاء على ثلاثة أشياء وإرساء أو إقامة ثلاثة أخرى .

القضـاء على الاحتكار، باحتكاره ! أى الانفراد به، ثم القضاء على الإقطاع الذى لا وجود له ، فمصر لم يكن بها إقطاع بل مجرد ملكـية زراعـية مسـطحة لا يقوى صاحبها على تحويلها إلى ما اصطلح الناس على إطلاق هذا الاسم عليه ، بسبب طبيعة الأرض وأنموذج الرى النهرى الترعى واحتكام السنطة المركزية.

ثـم يأتى القضاء على الاستعمار. ما الاستعمار ؟ وكيف سيكون القضاء عليه وعلى أى نطاق؟ وما نهاية هذا كله؟ على أية حال، فقد توصـل عـبد الناصر إلى ما يشبه مشروع صدقى بيفن الذى كان معروضـاً علينا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، وقبل أن يخرج الإنجليز ــ وهذه فيما نظن غاية القضاء على الاستعمار، وإلا فماذا هـي؟ ــ كـان قد استجار من الرمضاء بالنار وجاء بالروس ... لينبهروا هم بما لدينا فى بنزايون وعمر أفندى. على أى حال، كانت خطب عبد الناصر وإجراءاته وأحلامه ، تدور حول ما يلى :

ــ **دعوى القومية العربية** ، وفحواها أننا ما دمنا كلنا نتكلم لغة واحـدة وندين بملة واحدة فنحن إذن وطن واحد، ويجب ــ لكى نصـبح أقوياء ــ أن نتحد ونصبح دولة واحدة تسمى ــ مثـلاً ــ الجمهورية العربية المتحدة *، كما جدث فى حالة مصر وسوريـا

* أمكننا أن نسترد اسمنا على الأقل ! كنت فى بعثة تدريبية فى صيف ١٩٦٦ ، قبل النكسة المباركة بأقل من سنة ، وفى حفل استقبال أقيم لنا ، اقتربت منى أحدى السيدات . وقرأت اسمى واسم بلدى على البطاقة المعلقة على صدرى ، وقالت لى ــ أى والله ! ــ لا تؤاخذنى على جهلى يا سيدى ، أين تقع الجمهورية العربية المتحدة ؟ تذكرت هذا ، ومارست ما يسمية يوسف الشارونى " الضحك حتى البكاء " ، عندما قرأت عن مشاجرة ببين الجاويش النوبتجى الذى كان يحكم سوريا بعد ذلك بسنتين ، اسمه أمين الحافظ ، وعبد الناصر فى مؤتمر قمة (قمة من تحت يعنى) ، وقال له انه يحذره مما أسماه تدخل الجمهورية العربية المتحدة فى شوون سوريا ! وكانت تلك الجمهورية قد فقدت سوريا ثم ربع مصر ولكنها ما تزال متحدة .

اللتيـــن أصبحتا إقليمين، أحدهما شمالى والآخر جنوبى، يحكمهما طـــبعاً زعـــيم معبود من هذين الشعبين، وهكذا فإن جميع الدول المســـماه بالعربـــية ، يجب أن تدخل هذا الاتحاد بما فى ذلك دول نظامهـــا هو الملكية الوراثية المطلقة، كدول الخليج والأردن وليبيا (إذ ذاك) والعراق (إذ ذاك) والمغرب، بمعنى آخر لابد من "قلش" هذه العروش وتوحيد هذه البلدان، من المحيط الهادر ــ ولماذا هو هـــادر؟ ــ إلى الخليج الثائر، وهو لابد ثائر، يغلى، لأنه لا يطيق هـــذه الفـــرقة الـــتى صنعها الاستعمار، وتعتمل فى أعماقه أحلام الملايـــن فـــى الوحـــدة. ليس هناك شىء اسمه كويتى ومصرى وتونسى (برغم المثل الشائع الذى يقول: آيه لم الشامى ع المغربى ؟) هناك مواطن عربى يعيش فى الكويت وآخر فى مصر وهكذا. وآيه ذلك وحدة الشعبين العربيين فى سوريا ومصر التى استمرت ثلاث ... ثلاث ماذا ؟ ثلاث سنوات كاملة ! وعندما انفصمت كان مـــا جرى للمصريين فى سوريا هو آية الوحدوية المحايدة ! وكان العلاج سهلاً، شغل القيادة بالميثاق، وشغل الناس بمعادلة لتخفيض إيجار المساكن تهون إلى جانبها حسبة برمة كما تسمى .

ــ **دعـــوى الاشتراكية** . كل هذا لا يكفى . فكما أن الحقيقة قد تجلـــت للزعـــيم العظيم ، وفتح عليه الله ــ استغفر الله! فتح عليه خروشـــوف وبريجنيف وأذنابهما فى مصر ، كمال رفعت وعلى صـــبرى والأســـاتذة الماركســـيون ، فتحوا عليه بنور الاشتراكية متمـــثلاً فى طائرات السوخوى ودبابات من جميع الأرقام. كما أن هـــذا قد تجلى له، فلابد للمادية الجدلية أن تبسط جناحيها كالطائر المـــيمون فـــوق وحدة العرب، بما فى ذلك الجزيرة العربية ذات البترول وموطن "فلوس البترول" (التى تحدث عنها عندما روى أن الضابط الهمام، عصام، أخذ فلوس البترول التى أعطاها له الملك ســـعود ليقـــتل عبد الناصر وجاء بها إليه لتكون نواة لمشروعات الفشنك المسماه بالقاهر وأيضاً بالظافر. لماذا لم يسموها " ناصر "

و"عامر" ؟) والتى فيها أيضاً الكعبة الشريفة والحرم النبوى .

والاشتراكية هنا شيء منطقى جداً . سوف تشترك أقاليم هذا الوطن العربى فى كل شيء : هناك من لديهم الفلوس ومن لديهم التكنولوجيا ، وهكذا ، كنظرية الأوانى المستطرقة ، نصبح كلنا سعداء ولا أحد يملك شيئاً، كلنا نملك كل شيء . أما إسرائيل و "من هم وراء إسرائيل" ، فلدينا القوة النووية العظمى للاتحاد السوفيتى وهى كفيلة بأن تسكت صنائع الإمبريالية فى كل مكان، وهكذا نسترد "حقوق شعب فلسطين" ، باستخدام "أكبر قوة ضاربة" فى الشرق الأوسط ، خصوصاً بعد أن تتحول شعارات "لم الشمل"، ووحدة الصفوف ، ووحدة المصير ، وقد أضيف إليها الآن "تنقية الأجواء" مما يوحى بأن الأجواء إذن ملوثة. كما تتساوى الأقاليم فى الثروة (وهو ما نادى به صدام حسين أيضاً، اقتسام الثروة ، آه، اللى فى جيبك فى جيبى ، إحنا مش إخوات؟) سوف يتساوى الناس داخل كل إقليم ، وما عليك إلا أن ترجع إلى عبد الحليم حافظ لكى تتحقق من إمكانية هذا كله. وطنى يا مالك حبك قلبى ... يا وطن الشعب العربى .. ياللى ناديت بالوحدة الكبرى بعد ما شفت جمال الثورة ... جمال، والثورة ؟

أغلبنا لا يريدون، ولا يستطيعون، أن يتصوروا وقع هذا الكلام على حكام دول المنطقة وشعوبها .

مقتطفات من كتاب الملك حسين : "حربنا مع إسرائيل"

ـ وسط هذا الجو المحموم لم يجد السوريون أنسب من أن يرسلوا إلينا فى ٢١ أيار (٢١ مايو سنة ١٩٦٧) سيارة لتنفجر فى الرمتا على الحدود ، وكان من المفروض أن تنفجر فى قلب عمان ، وأسفر هذا الحادث عن مصرع ١٤ أردنياً . ورداً على هذا الشعور الأخوى قطعنا علاقاتنا مع دمشق . وقد أدى الحادث إلى

إشـــاعة القلق فى الأردن ، ففى هذه الظروف الدقيقة لم نعد نعرف ممن نحذر : من عدونا إسرائيل ، أم من حلفائنا العرب ؟

ـــ اســـتبعدت أن يكون الرئيس المصرى راغباً فى الوصـــول إلى الحرب ، بل قام فى ذهنى أنه لا يتوقع نشوب نزاع ، فى حين كنت أنا مؤمناً بحتمية هذا النزاع.

ـــ فى يـــوم ٢٨ أيـــار (مايو) ١٩٦٧ قطعت خطوة أخرى فى تصـــعيد النزاع : فقد عقد الرئيس عبد الناصر مؤتمراً صحفياً فى القاهـــرة وأعلـــن أمـــام ٣٠٠ صحافى : "إذا أراد الإسرائيليون الحـــرب، أقـــول لهـــم أهلاً وسهلاً، تفضلوا" ، وهذا يعنى "أيها الإسرائيليون ، ابدأوا أنتم بإطلاق النار .

ـــ كانـــت رغـــبتى فى مقابلة عبد الناصر غريبة عندما نفكر فى الشتائم والإهانات التى تصبها إذاعة القاهرة منذ سنة على العرش الهاشمى .

ـــ ذهلـــنا عندما شاهدنا أحمد الشقيرى يخرج من الطائرة وراء الملك ، كان يبدو واثقاً من نفسه وهو عارى الرأس و يرتدى ثياب الميدان من طراز ماوتسى تونغ . تقدم نحونا من دون أى إزعاج ، كان شيئاً لم يكن. كأن الوصول إلى الأردن كان بالنسبة إليه أمراً طبيعـــياً جداً . تصرف معنا ، ونحن الذين نعرفه تماماً، كأن شيئاً لم يحدث بيننا . يبدو أن السيد الشقيرى نسى أنه يعلن ، منذ سنة ، بأنه "يجب إسقاط نظام عمان قبل نظام تل أبيب" وهذا كله لم يمنع الشقيرى من تقبيل البعض ومصافحة البعض الآخر .

(زيد الرفاعى)

ـــ أخـــى العزيز الملك حسين : يوم يكتب التاريخ ، سيذكرون شجاعتهم وصمودكم

(برقية من عبد الناصر)

وشىء اسمه القومية العربية...

فـــى سنة ١٩٥٣ ، سرت إشاعة مؤداها أن أستاذ الجيل أحمد لطفـــى السيد (باشا) يستعد لكى يشغل منصب رئيس الجمهورية ، (نجا بجلده !) – وكتب المفكر والعلامة الكبير إذ ذاك مقالاً تحت عنوان "مصر تحكم بأبنائها لأول مرة منذ ألفين وخمسمائة سنة" ــ أذكر هذا لأنه ربما يكون هذا هو السبب فى أن الكثيرين من أبناء بلدنـــا يرفضون أن يتأملوا الحقيقة بشأن تلك الحقبة وما جره هذا كله عليهم، لأن هذا سيكون اعترافاً ضمنياً بأننا لا نصلح لأن نحكم أنفسنا، ما أن حكمت مصر بأبنائها حتى ذاقت من الفقر والاستعباد والهزيمة والخراب والقمع والتعذيب والتشرد والإذلال ما لم يسمع به أحد طوال ألفين وخمسمائة سنة، كأن قضية الحكم ليس فيها إلا هذا : أن يكون الحكام من أبناء البلد .

لـــم تكن مصر تحكم بأبنائها عندما نشأت فيها أول مكتبة وأول مـــتحف فى تاريخ البشرية ، وعندما زارها أفلاطون وعاد ليذكر فـــى الكتاب السابع من "القوانين" أنه يشعر بالخجل لمستوى تعليم أبـــناء بلده من الإغريق عندما يقارنه بمستويات تعليم الأطفال فى مصـــر ، حيث يتقنون الحساب وهم ما يزالون يتعلمون الأبجدية، وتعد الألعاب الحسابية لإقناعهم وتوسيع مداركهم . لم تكن مصر محكومة بأبنائها عندما دحرت الغزاة من الصليبيين وعندما قصمت ظهـــر التتار الذين مسحوا آسيا بأكملها ، ولم يكن من أبناء مصر ذلـــك الأحمـــر الوجه الأزرق العينين الأصفر الشعر الذى لم يولد فـــيها ولـــم يعـــرف لغتها ، ولكنه خلصها من قبضة الأفاقين من السفاحين السفلة واللوطيين الذين أفسدوا وأذلوا أهلها ، لم يكن من أبنائها ولكنه كان لديه من البصيرة ما يكفى ــ كما قال عنه بيرم التونسى ــ لأن يراها ببصره وبصيرته "كنوز، بس اللى يعرفها!" ــ لـــم تكـــن تحكـــم بأبـــنائها عندما أنشئت فيها واحدة من أعظم جامعات الدنيا إذ ذاك ، كان من أعلامها لطفى السيد ، وبذلت فيها

الأميرة فاطمة إسماعيل ــ بنت مصر، بكل تأكيد ــ الكثير الوفير من مالها الموروث عن أبيها الخديوى، وعندما أنتجت أمير الشعراء أحمد شوقى، والعلماء من طبقة مشرفة وعلى إبراهيم وكامل حسين والسنهورى ووحيد رأفت ، وأقطاب الفنون والآداب والموسيقى والمسرح وكل شىء ، فقط ، متى يكون الإنسان ابن بلده ؟

هل الأمريكان أبناء بلدهم ؟ والأستراليين والكنديين ؟ سواء من يتكلمون الإنجليزية أو الفرنسية ؟ ولماذا لا يظهر فيهم زعيم يلم شملهم ويحقق أحلامهم فى الوحدة ؟ أليسوا يتكلمون نفس اللغة ويدينون بنفس الديانة ؟

ولماذا لم يظهر فى سويسرا وبلجيكا زعماء يدعون الذين يتكلمون الألمانية والفرنسية والإيطالية وغيرها من اللغات ، إلى ثورة تعيدهم إلى تلك الأوطان ؟

عندما اشترك الأمريكان فى الحرب العالمية الثانية وغزوا ألمانيا وإيطاليا ، ألم يكن ربما أكثر من نصف جنودهم من أصول ألمانية وإيطالية ؟ وكانوا يقابلون أقاربهم فى البلاد التى دمروها فى زحفهم ؟

لو كانت القومية هى مجرد اللغة التى يتكلمها الناس، ومعها ديانتهم ، لوجب إذن أن تتغير خريطة العالم وتظل تتغير بصفة دائمة.

المسلمون فى الهند عددهم يفوق عدد المسلمين فى الباكستان، وفى بنجلاديش ؟ وهم يتكلمون الأردية والبنجالية والبنجابية ، حسب نشأتهم ، والمسلمون الذين لا يعرفون العربية ، من إيران شرقاً إلى أندونيسيا، عددهم يبلغ أضعاف المسلمين الذين يعرفونها.

اذا لم تكن القومية هى اللغة والدين ، فما هى ؟

هذا هو السؤال ، أليس كذلك ؟

إلى أى "قوم" ينتمى الفرد الإنسانى ؟

هناك عوامل كثيرة ، أقلها شأناً هو الأصول العرقيـــة واللغـــة والدين . وهذا لا يعنى أبداً أننا نقلل من شأن هذه العوامل. فاللغة وســيلة الإنســـان إلـــى الـــتعلم والعمل ومعاشرة الناس والكون، والإنســـان حيوان ناطق ، وبدون اللغة يصبح حيواناً غير ناطق . والدين وسيلته إلى الله ، وبدونها يكون مشوش الإيمان منعدم القيم. كل هذا صحيح . فقط هذا شيء والقومية شيء آخر.

وقـد كـــان البطالسة من الذين حكموا مصر ، وكانوا يتكلمون اليونانـــية ، ولكـــنهم تشـــربوا حضارة مصر وديانتها وأصبحوا مصريين .

وفى أمريكا اليوم ملايين من أصول فلسطينية ومصرية ، قد لا يكـــون الذين هاجروا منتمين تماماً البلد الذى هاجروا إليه ، ولكن أبناءهم أو أحفادهم على الأقل سيكونون كذلك . هكذا حال الدنيا .

بـــل إن الأمر لا يقتصر على هذا ، كل من لديه القدرة المالية المطلوبة فى بلد مثلنا ، يحاول أن يعيش حضارة العصر لأنها هى الحقـــيقة الصـــلبة ، تـــأمل المـــدارس الأجنبية ، وتأمل الجامعة الأمريكـــية ، بل دكاكين ماكدونالدز (التى هى عندهم نظير عربة الـــيد الـــتى تبيع الكشرى والفول المدمس ، لا أكثر) تأمل سلوك الشباب فى الديسكو وعلى نواصى الشوارع ، إن لم تكن هذه هى "موضة العصر" فما هى ؟ الغاضبون عليها هم الذين لا ينالونها ، ومـــن ورائهـــم زعمـــاء غـــارقون فيها ، يشعلون أحقادهم لكى يستبعدوهم ، هذه هى القصة بلا زيادة ولا نقصان .

هل يوجد شىء اسمه العالم العربي ؟

حقـاً ، الكـيان الصهيونى مفهوم . صحيح أنه ليست له حدود واضـحة ، وكانـت جولـدا مائـير تقول : حيثما يقف الجندى الإسرائيلى ، هذه هى حدود إسرائيل ، وكيف لا ؟ نحن أعطيناهم صـكاً بممارسـة البلطجة يوم ظهرنا أمام العالم بمظهر المتخلف الفقير الذى يتخذ موقع القوة العظمى ويريد أن يحل مشاكل العالم ، اليوم عندنا مشكلة الكونغو (نؤيد الثورة على السفينة بونتى ! نؤيد ثورتكـم ، أرسلوا الأولاد ! حقاً ، ما أعظم النكتة المصرية ولعن الله من أصاب أصحابها بما أصابهم). وغداً لدينا مشكلة فيتنام ... إلخ ، أما مشاكلنا فى الصحة والتعليم والتموين ... فما أسهل حلها، نضع ضباطاً فى مقاعد هذه الوزارات وفى الحال تنحل المشاكل. قد ترى هذا صحيحاً أنت وأنا، ولكن العالم ــ وهو يضم إسرائيل، ويجلسـها فـى الأمم المتحدة، شئنا أم لم نشأ ــ فهو يرانا بمنظار يختلف قليلاً .

الكيان العربى ، بالضبط ما هو ؟

فى سنة ١٩٥٣أعلنت قيادة القوات المسلحة عن مسابقة بعثات إلى الولايات المتحدة فى مختلف نواحى الخدمة، وكان فيها مسابقة مخصصـة لسلاح المهندسين تقدمت إليها ، وكان الامتحان يتكون من: المادة الفنية (معدات ميكانيكية فى هذه الحالة)، ولغة إنجليزية ، ثـم معلومات عامة. وكان اختبار المعلومات العامة ثلاثة أسئلة يختار المتقدم واحدًا منها، وكان اختيارى "جامعة الدول العربية" .

كان قد مضت بضع سنوات على إنشاء هذه المنظمة التى لست أدرى ، لـم أكن إذ ذاك أدرى ، ولا أدرى الآن بعد مضى نصف

قرن ، كيف أصفها دون أن أرتكب جريمة أو أقع فى محظور أو آخـر ؟ وأنـا لسـت صحفياً أو مفكراً ، أنا ضابط فى الجيش ، (وقتذاك) .

إلا أنـنى لم أعبأ بشىء ، ومضيت أكتب أننى لست أرى دوراً لهـذه المنظمة وكيف يستسيغ من فيها أن يبقوا فى مناصبهم وقد رأوا الأنظمـة العربـية ترسل قواتها إلى فلسطين لا فى محاولة لإنقـاذ شعبها من الضياع والهوان ، بل رغبة فى اقتسام الغنيمة. إمـارة شرق الأردن تحولت إلى مملكة على حساب هذا الشعب، وواضـح أن الإسـرائيليين اسـتولوا علـى بير سبع لكى ينعزل المصـريون فـى الخليل وبيت لحم ويضطروا إلى تسليم المنطقة للأردنيين ، فلا سبيل لهم إلى الانسحاب سوى من ذلك الطريق، لم أذكر شيئاً عن اللد والرملة والعملة ، تركت هذا لعبد الحليم حافظ، ثـم انتقلـت إلـى الدول العربية التى ليست مواجهة لإسرائيل ، وذكرت أن دورها فى الموضوع هو لا شىء .. مجرد إرسال قوة رمزية ، غالباً تتكون من أشخاص مطلوب إبعادهم .

مضـت هـذه السـنوات الطوال ورأينا دولة عضواً فى هذه المنظمة تنقض على دولة أخرى وتعيث فيها سلباً ونهباً وإحراقاً، وتعلـن إنهـاء وجودهـا وأنها قد تحولت إلى محافظة رقم ١٧، وانعقـدت القمة . أنا لا أنتظر من هذه المنظمة عملاً إيجابياً، فقط علـى الأقـل يحـدث إجماع على الاعتراض على هذا العمل ـ تصـور ! أن هـذا لم يحدث، ستة أعضاء من هذه الدول الاثنتين والعشـرين ، وافقت على ما حدث ؟ أظن أنه لو أن الذين اختشوا بقـى مـنهم واحـد فقـط لكان قد أغلق مقر هذا الشىء المسمى بالجامعـة، (ولست أدرى من أين جاء هذا الاسم) ، ثم يتحول هذا المقـر إلـى فندق أو مدرسة أو حتى سوبر ماركت . يا لها من مهزلة ! كم ملياراً يا ترى من أموالنا نحن الفقراء ينفق على مآدب الكافيار والطائرات المجهزة لانتقال "الآلهة" ؟ أما عندما يأتى الأمر

لمصـــر فالإجماع ! تعليق عضوية مصر.. ونقل مقر الجامعة إلى تونـــس، رحم الله السادات : "لو أن نقل الجامعة من مصر سيعيد حقوق شعب فلسطين فنحن على استعداد لأن نحملها على أكتافنا" . لحق بمصر الملك حسين فى الصلح مع العدو، ولا شئ، وعقد ملك المغـــرب مؤتمـــراً حضـــره يهـــود العـــالم بمـــا فيهم مئات من الإسرائيليين، ولا شيء ! وعندما جرؤ البعض على انتقاده قال إن هذه مسألة داخلية فى المغرب ولا شأن لأحد بها.

تـــرى ما هى بالضبط أهمية حقوق شعب فلسطين عند الأنظمة العربـــية ؟ وأيهـــا يعـــد بحـــق طرفاً فيما يسمى بالنزاع العربى الإسرائيلى ؟

هل صحيح أن قوات إسرائيلية ساعدت الأردن فى القضاء على المقاومة الفلسطينية فى أيلول الأسود ؟ سنة ١٩٧٠ ؟ إذا أخذنا فى اعتبارنا ما كان يمكن أن يحدث لو تغلب الفلسطينيون على الملك حســـين واضطروه لمغادرة بلاده لعرفنا كيف أن هذا الأخير كان محقاً تماماً فى أن يستعين بالشيطان نفسه كما فعل تشرشل . فقط ما الذى يدل عليه هذا كله ؟

هل توجد دولة من هذه الاثنتين وعشرين، فيها نظام يهمه بأى درجة أمر الشعب الفلسطينى، بخلاف دول المواجهة، التى وجدت نفسها فى مأزق جغرافى ، وبخلاف مصر التى .. ما علينا.

وما الذى تحقق بعد هذا كله ؟

وهـــل كانت الأمور تكون أسوأ من هذا لو أن أحداً لم يعترض على قرار تقسيم فلسطين ؟

وهـــل أى دولـــة أو عدد من الدول فيما يسمى بالعالم الثالث ، يمكنها أن تفرض إرادتها بالقوة فى موضوع كهذا؟

نحـــن نذكر ما حدث لإنجلترا وفرنسا وإسرائيل سنة ١٩٥٦، ومـــنه أن نوبرين بيفان النائب العمالى ، وقف فى البرلمان يقول: قبل أن نلجأ إلى شريعة الغابة ، علينا أن نتذكر أننا لسنـــا أقـــوى

الوحوش التى تعيش فيها .

ألسنا نرى الدول المنتجة للسلاح الذى ينفع فى الحروب الحديثة، كلها مؤيدة لإسرائيل وساهمت فى إنشائها ودعمها بكل شىء وبكل طريقة ؟

آن الآوان لأن نتساءل : لماذا يدعمونها ؟

العالم الثالث وحضارة العصر :

يجب أن يكون واضحاً لنا أن الغالبية العظمى من الدول العربية ــ كما تسمى ــ غارقة فى مشاكلها هى ــ سواء كانت مشاكل الحكم وانتقاله ، أو مشاكل الفقر والمعيشة ، أو العلاقات الخارجية والأخطار المحيطة ــ وأن دورها فى مشكلة فلسطين لا يتعدى خطبة تقال فى مؤتمر ، أو ــ إذا كانت الدولة خليجية، وبعد مجيء ثمار البترول فى أواسط الخمسينيات ــ مبلغ من المال . وهذا المبلغ عادة لا يصل إلى الشعب الفلسطينى ، إنه يذوب فى حمامات الفنادق الفاخرة وفى رمال الريفييرا . لا يفوتنى هنا أن أذكر بالخير والإعجاب ما فعلته دولة الكويت بالذات ، فتحت أبوابها ووظائفها للفلسطينيين ، بما فى ذلك منصب وزير الخارجية فى ذلك الوقت ، الذى كان فلسطينياً ، (كان اسمه فايز صايغ) وتأمل ما لقيته الكويت نظير ما قدمته من خير وتضحيات. إن أحاسيس الغيرة والنقمة والرغبة فى تدمير الآخرين كتعويض عن إصلاح الذات وتحسين الأحوال، هى التى تتمثل فى العلاقات العربية أكثر من أى شىء آخر ، ومن ذلك الشعار الذى كان يرفعه أحمد الشقيرى ، وهو أن تحرير عمان يجب أن يسبق تحرير فلسطين، هذا مع مراعاة أن المملكة الأردنية فتحت هى أيضاً أبوابها للشعب الفلسطينى ، وكما هو معروف، فإن الفلسطينيين يشكلون غالبية سكان المملكة، وانظر ما أوشكت

الأردن أن تلقـاه فى أحداث أيلول. ولو أن الضفة الغربية تحولت إلـى جـزء من المملكة الأردنية ولو أن المملكة سعت إلى كسب اعـتراف العالم بذلك ــ وأظن أن هذا كان متاحاً بسهولة ــ لكان شـعب تلـك المنطقة قد عاش فى دولة مستقلة تنعم بحكم مستنير وسياسـة رشيدة ، وإذا أردت تقييماً للملك حسين فما عليك إلا أن تعـيد الاسـتماع لمـا يسـمى خطاب التنحى ، والذى يأتى فيه الاعـتراف بفضـله وشهامته وشجاعته ، بعد سنوات من الردح الـبذئ والسباب الرخيص "ابن زين" ، وماذا فى ذلك ؟ كما كتب أديب معروف ذات مرة، ما الذى يضير إنساناً أن تكون أمه اسمها زين ؟ (ولسنا نريد أن نشير إلى ما يشاع عن امهات الحكام ومن أيـن أتـوا) يا لها من تفاهة وسفاهة، وبعد هذا نتساءل ما الذى جرى لنا ؟ حقاً، اللى اختشوا ماتوا، هكذا يقول المصريون، ويقال أنهـم ماتوا فى الزلزال الذى ضرب الإسكندرية أيام الفاطميين ، وكـان الـناس يسـتحمون فـى حمـام عمومى، خرجوا عرايا ومذعوريـن، "خلعوا برقع الحياء" إذا كان البديل هو الموت، أما الذين لم يقدروا على ذلك، الذين "اختشوا" ، فهؤلاء الذين ماتوا .

حقاً ، ما أفدح المصيبة وما أعظم الكارثة.. لا يكاد يوجد نظام حكم فى العالم العربى طوال سنوات الحرب الباردة، لم يحاول أن يسـتغل مأساة الشعب الفلسطينى لمصلحته هو، باستثناءات تتمثل فى دول الخليج ، التى ليس لديها إلا المال والوظائف ، وقدمت هذا بقـدر عظـيم، سـواء كان هذا تعاطفاً، أو خوفاً من الرأى العام عـندها، أو مـن تهديـد الفلسـطينيين الذين أعلن بعضهم أثناء السـبعينيات أنهـم سوف يتسللون إلى غرف نوم الحكام، كل هذه كانت مسببات للسخاء العظيم الذين قدموه. وهناك دول مثل لبنان، لا ناقـة لها ولا جمل فى المسألة لاعتبارات معروفة جيداً، ولكن النكسـة جاءتهـا باختلال فى التركيبة الاجتماعية وغزتها فصائل الـتحرير التى بدأت تلعب فيها نفس الدور الذى لعبته فى الأردن

وهو تصويب السلاح لا إلى العدو الإسرائيلى عبر الحدود، بل إلى صدور أصحاب المتاجر والمطاعم، أدى هذا ــ كما نعرف ــ إلى حرب داخلية طاحنة قسمت لبنان إلى مناطق نفوذ طائفية، بقية هذه القصـــة معـــروفة للجميع وعواقبها ما تزال ماثلة. لبنان على أية حال، بلد لا يستطيع أن يعطى شيئاً، وكانت مركزاً للإشعاع الثقافى والحضارى، كان يمكنها أن تلعب دوراً بهذه الصفة.

هـــناك استثناءات أخرى: تونس. فى ظل حكم بورقيبة ، ظلت تونس تحتفظ بروابط ثقافية مع فرنسا، وكان بورقيبة يرى حتمية التعامل مع إسرائيل، ويرى أنه لا فائدة من النزاع المسلح ، وأظن أنه لم يعد هناك ضرورة للدفاع عن هذا الموقف. بعد نصف قرن نرى جميع العرب يرفعون شعار أنهم: دعاة السلام !

ليبيا : أيام السنوسى ، يعنى لغاية قيام ثورة الفاتح العظيم سنة ١٩٦٩ ، ثم الجزائر ، بلد المليون شهيد ، بطولة، ما فى ذلك شك، إلا أن الحـياة فيها أشياء كثيرة ذات قيمة بخلاف البطولة ، منها الحكمة مثلاً ، كما فى حالة بورقيبة ، خصوصاً إذا كان مليونٌ من البشـــر سوف يهلكون من أجل زعماء يسرقون الملايين ويقتلون بعضهم بعضاً، وما عليك إلا أن تتأمل النتائج! آه ، المغرب ، أيام محمد الخامس ثم الحسن الثانى، البلد الذى هو بداية العالم العربى مـــن ناحية المحيط الهادر .. الحرس الملكى الخاص فى هذا البلد يتلقى تدريبه فى إسرائيل فيما يقال. لا ألومه على ذلك. انعقد مرة مؤتمـــر قمـــة هناك، وطبعاً ثارت الخلافات، ووقف الملك الحسن يقـــول لـــ "ضيوفه" ــ "المطارات كثيرة فى المغرب" ــ وفعلاً، انفضوا بعد أن طردهم رئيس المؤتمر، الذى أصبح بعد ذلك رئيساً للجنة القدس !

مجـــرد ربـــط كل قرار يتخذ بإجماع هذه التوليفة العجيبة من المندوبيـــن ، لا يعنى إلا استحالة اتخاذه ، اللهم إلا إذا كان موجهاً ضـــد البقرة الحلوب . أما البقية ، فكما يقول المثل : ما قدرش ع

الحمـــار قـــدر ع البردعة . كل واحد يرى أن المشكلة لا تحل إلا بتحرير بلد عربى آخر من نظامه العميل .

نحن نعيش عصراً معيناً، ومع تمسكنا بأهمية الماضى، وحتمية المســـتقبل ، فإن لهذا العصر حضارة تفرض نفسها علينا، والذين ينكرونها إما يفتقرون إلى ما يلزم لمعايشتها، أو يريدون تعزية من يفتقرون إليه. ولكن هناك فارقاً كبيراً بين ما هو واقع حاصل، وما هـــو قضية أخلاقية. مواثيق الأخلاق ضرورة للمجتمع الإنسانى، ولكن الحياة ليست بأكملها قضية أخلاقية، والفرد الإنسانى قد يكون ملـــتزماً ومتعاطفاً، ولكنه يظل فى موقف يفرض عليه أن يتنافس مـــع الآخرين ويتسابق معهم من أجل لقمته. هناك نمط حضارى يهيمـــن علـــى هذا العصر، وهو لا يتمثل فى مجرد أمريكا التى أصبحت "ملطشة" بسبب موقعها القيادى، بل هو أمريكا واستراليا وكندا وأوربا واليابان والنمور الآسيوية، قد يكون أصدق تمثيل له هو مجموعة الدول الصناعية، وإذا تمكنت روسيا من أن تفيق مما حـــاق بها من حقبة الشيوعية (والذى حاق بنا أدهى وامر وأضل سبيلاً ولا أظن أننا سوف نستطيع أن نشرئب بأعناقنا فوق الوحل الـــذى غرقنا فيه) فإنها سوف تنضم إلى هؤلاء. سوف نعود إلى الخريطة الحضارية للعالم وموضعنا فيهـــا بعد ما سيأتى.

هل مازلت تتصور أن هناك شيئاً اسمه العالم العربى ؟

هـــل مازلـــت تظـــن أن هـــناك شـــيئاً اسمه الصراع العربى الإسرائيلى ؟

مـــا فتـــئـــــنا (حلوة دى ؟) ما فتـــئـــنا نتحدث عن لم الشمل ووحدة الصف، ونعيد ونزيد، مضى القرن العشرون بأكمله ونحن نخدع شعوبنا بهذه التعبيرات التى ليست جوفاء فحسب، بل أيضاً ركـــيكة وســـمجة وعديمة المغزى. كل دولة عربية دون استثناء تقريـــباً، دخلـــت فـــى صراع مسلح مع دولة عربية أخرى، على الأقـــل. أو حشـــدت قواتها كما حدث بين سوريا والأردن، بشكل

يذكرنى بنجيب الريحانى وهو يتشاجر مع جاره فى الدور العلوى فـــى فيلم "سلامة فى خير"، ويصعد الدرج جرياً ثم يهرول نازلاً. ضـــع نفسك مكان إسرائيل، سواء الحكومة أو الشعب، وحاول أن تفكر أو تشعر بما يفكرون به أو يشعرون ؟ ما الذى وراء هذا ؟

وراءه حقـيقة لا نـــريد أن نعترف بها أو حتى نواجه أعماق نفوسنا بها: العرب مجموعة من الدول ليست بينها روابط حقيقية. مـــتفاوتة فـــى كـــل شىء ومتباينة فى كل جانب وكل مظهر من جوانـــب الحـــياة ومظاهـــرها. مستوى المعيشة، مستوى التعليم، التقالـــيد، العادات، العلاقات الدولية، نظم الحكم والإدارة، الفنون، الملابـــس، طبـــيعة الأرض، النشاط الاقتصادى، العملة، بعضها قصـــاقيص أو كوبونات محلية، وبعضها له مكانة عالمية كالدينار الكويتى مثلاً وبقية عملات الخليج والأردن. ليس لدينا شىء يعطيه أحدنا للآخر .. اللغة؟ آه، أية لغة يا سيدى العزيز؟ إن قيمة أى لغة هى نتاج ما يفعله بها أصحابها. فما الذى نفعله بها؟ هل جامعاتنا تجـــرى الـــبحوث بالعربية؟ هل توضع المؤلفات الفكرية والعلمية باللغـــة العربـــية؟ إننا حتى لم نعد نفهم بعضنا بعضاً، وأتمنى أن نجمـــع فى صيوان واحد أساتذة اللغة فى كل الأنحاء ونجرى لهم امتحاناً!

والأدهى من هذا كله ، مصيبة الشيوعية .

الـــذى أقصده بالشيوعية ليس التنظيم الحزبى ولا موقف دعاه الماركســـية كما يحب صديقى المذكور أن يقول "عبد الناصر كان بيحـــبس الماركســـيين"، صحيح . وكذلك ستالين . لم يكن ستالين يكتفى بحبس الماركسيين ، أنه كان يعذب ويقتل أنبياء الماركسية مـــن نـــوع تروتسكى وغيره ، فهل هذا يا أخى العزيز، ينفى أن الاتحاد السوفيتى كان تطبيقاً لنظرية الشيوعية ؟ البلد يكون شيوعياً عندما:

(١) يتحالف مع الشيوعية العالمية، ممثلة فى الكتلـــة الشرقيـــة

أيام الحرب الباردة .

(١) يخضع اقتصاده لبيروقراطية الدولة.

ألـم يحدث هذا فى مصر ؟ وهل ينتفى لمجرد أن تشاوشيسكو مصـر كـان يحبس الماركسيين ثم يعود فيطلق سراحهم ويخرج الواحـد مـنهم من الحبس ليجلس على رأس مؤسسة صحفية أو إعلامـية ؟ السـؤال هو : ماذا كان تأثير هذا التحول على موقف العـالم مـن قضية فلسطين ، العالم الغربى الذى لا ينام الليل من الرعب النووى ، ويجد أن مصر ، ومعها سوريا ، وهما الدولتان اللـتان تتصـديان لهذه القضية ، كلتاهما حليفة موسكو، ومعهما مـنظمة الـتحرير الفلسـطينية ؟ هل تنتظر من دول مثل فرنسا وألمانـيا وإنجلترا ثم أمريكا أن تقول لنفسها: معلش ، برضه إحنا لازم نكـافح من أجل القضية ! الذى حدث هو أنها قالت لنفسها : مش بس متخلفين، ومش بس أعداءنا من أيام الحروب الصليبية ، ومـش بس حكامهم بينهبوا ثرواتهم ويضيعوها فى المغامرات، لأ وكمان متحالفين مع أعداءنا وعمالين يقولوا لنا اشربوا من البحـر الأبيض ومن البحر الأحمر.

يقال أن ليندون جونسون عندما سمع بقول عبد الناصر موجهاً حديثه إليه: اشربوا من البحر، قال لمساعديه: سأجعله يشرب من المجـارى. ولكـنه ـ فى واقع الأمر ـ لم يشرب من المجارى، شـربناها كلها نحن الشعب، بينما القائد الملهم يشرب الايفيان فى قصـره فـى منشـية البكرى والشماشرجى يقول فى مذكراته أنه اقـترح عليه أن "تأخذك إلى مكان آمن فى الصعيد !" الشعب كله فداء لقائده المحبوب، المهم ألا يتعكر دمه، "والنبى ما تزعل أبداً " هذا يحدث وما يقرب من نصف مليون من أبناء البلد يهيمون فى الصحراء ويموتون من الظمأ والجرحى منهم ينزفون تحت الشمس الحارقـة، والطيور الجوارح تغرس مناقيرها فى لحومهم وهم ما يزالون أحياء، والإسرائيليون لا يعرفون ما يفعلونه بهذه الجحافل

سـوى أن يبـيدوهم كأسراب الذباب .. وكفى ما هم فيه من جمع الغـنائم من العربات والجرارات والدبابات والمعدات الإلكترونية التى رهنت مصر قطنها وكل ما لديها عشرات السنين من أجلها! وبدلاً من أن ينزل الزعيم إلى الشارع ليعلن أنه على استعداد لأن يدفـع أى ثمـن يريده الإسرائيليون، معاهدة سلام، أى شىء، فى سبيل إعادة هؤلاء الجنود إلى بيوتهم، بسيارات الجيش المصرى، ووقـود مـن مسـتودعاته فى سيناء، على أن يعود الإسرائيليون بغـنائمهم، لن يعترضهم أحد، ثم وهو فى نفس الموقف، يعلن أنه يسلم نفسه للمحاكمة، بدلاً من هذا رأينا عضواً فى البرلمان يرقص طـرباً لأن الرئـيس عـدل عن قراره بالتنحى، وكيف لا ؟ وهو يتقاضى خمسة وسبعين جنيهاً لا تساويها بلده كلها عنده ؟ وجريدة الأهـرام تنشر صوراً للمظاهرات التى تطالبه بأداء دوره فى هذه المهزلة، وتحتها عنوان يقول..أتدرى ما تقول: "فرحة الشعب"..!

هـل تستطيع أن تتصور ما يراه فينا العالم ونحن هكذا ؟ البلد، شـعبها ، كرامـتها ، ثروتها ، كل هذا لا يساوى خمسة وسبعين جنيهاً يتقاضاها واحد ممن يسمون نوابها .

أعرفت الآن من أين جاءت نسبة الخمسين فى المائة ؟

أعـرف بالاسم رجل أعمال جلس فى ناديه وقال هذا الكلام . الـرجل مدفـوع طبعاً بالأسى على أحوال بلده . أتعرف ما الذى جرى له ؟ اختفى فجأة من على وجه الأرض ، وبعد يومين اتصل مـندوب من المخابرات بأسرته ليأتوا لاستلام جثته ، ولا تحاولوا أن تنشروا نعياً له ، الصحف سوف ترفض على أى حال ، وإياكم أن تقـيموا جنازة . ادفنوه "سُكيتى" ــ فى هذا الصدد نشرت مجلة "أكـتوبر" تحقـيقاً صحفياً عن مبنى مجلس قيادة الثورة ، يتضمن صورة "قاعة المحكمة"، فى إحدى جلساتها يظهر فيها عبد الناصر ومحـيى الدين وغيرهما، ثم صورة للحجرة المجاورة لها، "غرفة الإعـدام"، حيـث يلقى حتفه كل من يجرؤ على أن يحتج على ما

جـرى لـبلده، أن يرفع صوته فوق صوت المعركة ! معركة لن تحدث أبداً، لكى لا ترتفع الأصوات على الأقل !

فى واحد من مؤتمراته الشعبية قال أمام الميكروفون : "إحنا ما عـندناش اعتراض على الماركسية، بأى حال م الأحوال !" حسناً، ومع ذلك يريد أن يحقق وحدة الوطن العربى .

طيـب، يعنى هل تريد من شعوب الجزيرة العربية أن تتوحد تحـت لـواء الماركسية ؟ أن ترفع النجمة الحمراء فوق الحرمين الشريفين ؟ يخيل إلى أن نجمة داوود معقولة أكثر ، فقد كان داوود نبـياً، وهو مذكور فى القرآن، المأساة هى أن هذا الحاكم المطلق السـلطات، الذى يحيط نفسه بمعاونين هو ولى نعمتهم وبالتالى لا يجـرؤ واحد منهم على أن يسمعه إلا التسبيح بحمده ، وتمثل هذا فى مؤتمر النكسة الشهير ، ضابط مدفعية على يمينه يعمل وزيراً للخارجية، فالبلد خلت تماماً من الدبلوماسيين ، وضابط آخر وزيراً للإعـلام على شماله وهو يقول أنه "مش خرع زى مستر إيدن"، المأسـاة هى أن الذى يريد توحيد العالم العربى مع أنه ليس لديه اعـتراض علـى الماركسية ، تتمثل فى أنه لا يعرف شيئاً لا عن الإسلام ولا عن الماركسية .

وقد وجد من يفلسفون شيئاً اسمه "الماركسية الإسلامية" . فتأمل كان عبد الناصر يتخيل فعلاً أن فى إمكاننا أن نشترى السلاح من الاتحـاد السـوفيتى ونحـط فـى اليمن ، وننشىء قاعدة للزحف الاشـتراكى ثـم نستولى على منابع البترول ثم نذل العالم الغربى كله، وإذا قاومونا فإن الاتحاد السوفيتى سوف يتكفل بهم..

شـخص بهذه العقلية كان فعلاً .. لا يحكم مصر فحسب ، بل يـتخذ كل قرار بشأن حاضرنا ومستقبلنا ومستقبل أولادنا ، والذى يجـرؤ على مجرد اللفظ بكلمة اعتراض ، هناك حمزة البسيونى وأحمد الأنور * وخبراء التعذيب المستوردين من الخـارج علـى

* هذا الكائن الذى كان مديرا لواحد من أبشع السجون فى تاريخ البشر، عينه عبد الناصر =

حساب نفس هؤلاء الذين سيتعذبون ، ومن أموالهم .

كـل هذا كان بالطبع معروفاً جيداً للإسرائيليين ، أما الروس ، فماذا كانوا ؟

اليهود والاتحاد السوفيتى وبقية العالم :

لكـى نـناقش هذه النقطة يجب علينا أن نكون واعين للمشكلة التاريخـية للـيهود. أغلبـنا يفتقر إلى الدراية بهذه النقطة وطبعاً سياستنا ــ كالمعتاد ــ هى: إياك أن تتحدث فى هذا الموضوع أو أن تحـاول أن تعرف شيئاً عنه. وأيام أن كانت العبودية مازالت تمارس فى الولايات المتحدة ــ وبقية العالم هنا وهناك طبعاً ، فهم لـم يخترعوها ــ ولغاية وقوع الحرب الأهلية كان محظوراً على العبيد أن يتعلموا القراءة والكتابة. وكان الذى يعلم واحدا منهم ــ وهـذا سيكون أبيض طبعا ــ يعتبر قد ارتكب مخالفة جسيمة، أما العـبد نفسـه فإن أصابعه تقطع بالساطور لكى لا يستخدمها فيما تعلمـه . لست أدرى فارقاً كبيراً بين هذا الإجراء وما فعله اتحاد الكـتاب المصـريين بالكاتـب المسرحى على سالم، فصلوه من عضـوية الاتحاد (لا أظن أنه يحس بأنه خسر شيئاً، بينى وبينك)، وذلـك بدعـوى أنه لقيامه بالتطبيع مع العدو الإسرائيلى، وهى عبارة تتصف بقدر من الركاكة وانعدام التناسق بين اللفظ والمعنى، تكفـى لأن تعـرف مـا أقصده بأنه لم يخسر شيئاً كثيراً. لابد أن نحـارب ــ أو نتظاهر بأننا نحارب ــ هذا العدو دون أن نعرف عـنه شيئاً لكى تكون الهزيمة كاملة وأيضاً لا نعرف أنها وقعت. كل ما جناه هذا الكاتب هو أنه التقى بهم وألف كتابا عنهم وعرف عنهم معلومات أراد أن ينقلها إلى الجميع . يلحق هذا طبعاً بسلوكنا المعروف والذى اعتدناه ، وهو سلوك النعامة ، إذا لم تكن تـرى

= سـفيراً لمصر فى مدريد ، اقرأ وصف المؤرخ الدكتور حسين مؤنس الذى يصف فيه اعـتداءه بالضـرب على سكرتير السفارة إلى حد أنه أسال دمه ومزق ملابسه وأمر بحبسه فى بدروم السفارة. أسلوب ثورى فى الدبلوماسية ؟ أليس كذلك ؟

المشـــكلة فهى إذن ليست موجودة . أنا لا أفكر إذن أنا ليست لدى مشاكل .

كـــم تظن عدد من يعرفون أنه كانت هناك مملكة قديمة اسمها إســـرائيل ، فـــيما هو الآن إسرائيل وفلسطين ؟ كم تظن عدد من يعـــرفون ـــ فى كل أنحاء المنطقة ـــ أن اليهود لقوا من ضنوف الإضطهاد والبهدلة ما لم يلقه شعب آخر ، وأنهم قد طردهم الأمير الـــرومانى "طيطاس" ـــ الذى أصبح إمبراطوراً بعد ذلك ، وخرب معـــبد ســـليمان ممـــا أدى بهم إلى الشتات فى كل أنحاء الشرق والغـــرب ، كان هذا سنة ٧٠ ميلادية ، يعنى بعد ميلاد المسيح . المســـيح علـــيه السلام ولد يهودياً وكذلك كل حواريه وأنصاره ، وهو لم ينكر الناموس ـــ كما أوضح ـــ وذكر أنه جاء لكى يضيف إلى الديانة اليهودية لا لكى ينقضها. الأنبياء السابقون له والمذكور كثيرون منهم فى القرآن ، مثل إبراهيم ثم اسحق ثم يعقوب ولوط ويوســـف وموســـى وأيوب ، كل هؤلاء عبرانيون . وبالتالى فإن الكـــتاب المقـــدس عـــند المسيحيين وعند اليهود هو ذات النص ، الفـــارق الوحـــيد هـــو أن اليهود لم يصدقوا المسيح وبالتالى فإن الإنجيل ـــ وهو ليس إلا سيرة المسيح وأقواله ـــ هو الجزء الوحيد الذى يختلف عليه الفريقان .

ليس هذا ذنب أحد ، هذه هى الرسالات السماوية . الحقيقة إذن هـــى أن الـــتراث "الـــيهو ـــ مســـيحى" هو الذى يسود كل أوربا والأمريكتيـــن (وهاتان طبعاً تمتلآن بالمهاجرين من أوربا) أوربا، طـــبعاً ، يعـــنى روســـيا أيضـــاً . جميع الأنبياء الذين يؤمن بهم المســـيحيون ، كلهم يهود ، طبعاً جاء بعد ذلك قديسون من أجناس متعددة، ونحن طبعاً ـــ المسلمون ـــ نؤمن برسالات الأنبياء الذين ذكرناهم فيما سبق .

وفـــى عصر الرئيس الأمريكى كارتر ـــ وكان رجلاً متديناً ـــ كان عندما يجتمع مع مناحم بيجن يظل الاثنان يتمثلان بآيات مـــن

كتب التوراة والأسفار الملحقة بها.

هـناك إذن روابـط عقائدية وروحانية وتراثية وثقافية عميقة ووثـيقة بين هاتين الطائفتين . لا ينفى هذا حقيقة أن يهود الشتات تعرضـوا للكثير من أحداث الاضطهاد ، وإلى مذابح حصلت فى أوربـا وأمـريكا تسـتهدف اليهود ، كمذبحة يورك الشهيرة فى إنجلـترا، واسـتمر هذا إلى أن وصل إلى قمته فى عصر ألمانيا الـنازية والذى يرجع إلى أن فلسفة هؤلاء كانت تقوم على النقاء العـرقى ، واليهود ساميون ، أو مفروض أنهم من نسل سام ابن نـوح، وليسـوا آريين كالألمان الأنقياء ، ومما يذكر أن الغجر تعرضـوا لحملات الإبادة فى نفس الحقبة على أيدى الألمان ، فهم أيضـاً ــ فيما يرون ــ جنس واطئ . كان هتلر وأذنابه يعتبرون اليهود حيوانات ، بما فى ذلك كائنات مثل سيجموند فرويد ، الذى هـو أبـو التحليل النفسى ، وألبرت أينشتاين ، وهو أبو الفيزياء الحديـثة ، وهنرى بيرجسون ، فيلسوف الزمن والتطور الخلاق ، وإن كان النازيون قد تعمدوا ألا يؤذوا من وجدوه منهم فى البلدان التى فتحوها ، فرويد فى النمسا وبرجسون فى فرنسا.

فـترة الصراع هذه ــ الحرب العالمية الثانية ــ أيضاً ليست ، فى ظنى المتواضع ، مفهومة جيداً على مستوى العموم . وقد رأينا بعـض الشـباب أيـام حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ، يتظاهرون منادين : "تقدم ياروميل !"، تعبيراً عن غضبهم لما فعله الإنجليز عـندما فرضوا حكومة الأغلبية على الملك ، كما لو كان الألمان سيكونون أفضل من الإنجليز البطالين . إذا كانت هذه نظرة النازى لليهود لكونهم ساميين ، فلك أن تتأمل كيف تكون نظرتهم لنا ونحن ــ منذ قرون ــ لم نقدم للعالم علماء وفلاسفة مثل هؤلاء .

قـبل أن أمضى فى حديثى ، أريد أن أتوسل للقارئ ألا يترك مشـاعره القومـية تطغى على قدرته على التحليل الموضوعى . على مدى القرون الستة الأولى من الألفية الثانية ، كان كتاب العالم

الكبير ابن سينا فى الطب ، المسمى "القانون" ، هو كل ما لدى أوربا فى هذا الموضوع . وكذلك فإن العرب ــ أو الناطقين بالضاد ، كائنة ما كانت سلالاتهم العرقية ــ قد أعطوا البشرية أصول الجبر والكيمياء والفيزياء ، على أيدى نوابغ مثل الخوارزمى ، (الذى يستخدم اسمه كمصطلح فى علم بحوث العمليات الحديث "آلجورذم" كما هو شائع ومعروف) وجابر بن حيان والحسن بن الهيثم . وقبل ذلك بآلاف السنين ، كان المصريون القدماء يبنون الأهرامات والمعابد بينما شعوب أوربا تسكن الكهوف وتفترس ما تصطاده من الحيوانات كالحيوانات ، وكان لدى المصريين مدارس ومستشفيات ونظام للإدارة ومشروعات للرى وكان يجرون جراحات فى المخ ، إلا أن تاريخ الحضارة يتحرك كما يتحرك كل شىء فى هذا الكون .

يؤرخون لعصر النهضة فى أوربا من منتصف القرن الرابع عشر إلى نهاية القرن السادس عشر ، كانت هذه صحوة هائلة فى أوربا بعد السبات العميق الذى تلا عظماء المفكرين من الإغريق فى القرون السابقة لمولد المسيح عليه السلام .

فى أواخر تلك الحقبة ظهر المفكرون من طبقة جوردانو برونو ، ونيقولا كوبيرنيكاس وجاليليو جاليل، وقالوا لنا أشياء جديدة عن حركة الأجرام فى السماء تغير المفاهيم التى كانت سائدة منذ عصر بطليموس الفلكى، الذى هو يونانى الأصل ولكنه اسكندرانى وبلدياتنا مائة فى المائة. وهذا ليس عيباً فيه ، كان ما قال به فى زمانه يعد معجزة فكرية، ولكن اكتشاف الإنسان لحقائق الكون والحياة يظل يمضى شئنا أم لم نشأ. تلا تلك المرحلة أربعة قرون من السابع عشر إلى العشرين كانت حافلة بالكشوف العلمية والاختراعات التى جعلت حياة الإنسان على هذا الكوكب تصبح ما هى عليه الآن ، كل هذا حدث فى أوربا وأمريكا الشمالية التى هى ــ من وجهة النظر هذه ــ تعتبر ضاحية من ضواحى أوربا.

ألتقط أنفاسى وأتوقف لكى أحلف بالله العظيم أننى لا أهدف إلا إلى استعراض الحقائق من أجل التوصل إلى فكر يقوم على العقلانية وليس على الانفعال العاطفى، وأتمنى ألا أكف عن تذكير أبناء بلدى أنه فى سبيل التوصل إلى السلطة فإن الكثيرين من المضللين لا يتورعون عن خداع الناس بشعارات الاشتراكية والأصولية وهم آخر من يؤمنون، لا بهذا ولا بذاك ولا بهذا وذاك معاً! وأكرر أن أوربا كانت فى حضيض التخلف قبل نهضتها هذه، وكان أطباؤها يعالجون المرضى بأن يجعلوهم يبتلعون العناكب وهى حية . ولكن الحقيقة تبقى وهى أن لوى باستير كان أول من اكتشف وجود الجراثيم فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر مما أدى إلى بداية عالم جديد فى الطب، لا ينتقص هذا من قدر ابن سينا، فالمعرفة تمضى فى طريقها مستقلة عن كل شىء آخر وتطبيقاتها تأتى كل يوم بوسيلة جديدة فى حياة البشر، هذه الوسائل لها دائماً تأثيرات جانبية ضارة، لأن هذه طبيعة الحياة من جهة، ونظرتنا نحن إلى ما هو خير وما هو شر من جهة أخرى. إبادة الجراثيم التى تصيبنا باستخدام المضادات الحيوية يعد خيراً لنا نحن البشر، ولكن الجراثيم ستخالفنا فى ذلك بطبيعة الحال، وأنا شخصياً أشرفت على الهلاك مرتين، لا بسبب المرض، فقد كان تافهاً فى الحالتين، بل بسبب الإسراف فى تعاطى الدواء، ولعل القارئ قد جرب شيئاً من هذا . نحن هنا بسبيل استعراض حقائق التاريخ التى تهمنا فيما نحن بسبيله ولسنا ــ على وجه الإطلاق ــ نتحدث عن الخير أو الشر أو أن الخواجات "ناس كويسين" أو "وحشين"، هذا ليس موضوعنا إطلاقاً .

من نيوتن وفارادى فى إنجلترا إلى ماركونى فى إيطاليا، من جورج أوم فى ألمانيا إلى أندريه أمبير فى فرنسا وإلى جراهام بل وتوماس أديسون وهنرى فورد فى أمريكا ، من مندليف الروسى اليهودى إلى نيلز بور الدانماركى ــ عالم جديد من الكشوف

والاختراعات أدى إلى حضارة جديدة نعيشها جميعاً ولكننا نتعمد مهاجمتها وإنكارها، الأصوليون يدعون إلى نبذ كل شيء فيها، ماعدا المدافع الرشاشة والموتوسيكلات والتليفون المحمول والأدوية طبعاً . كفانا نفاقاً . ونحن عندما ننافق لا نخدع إلا أنفسنا، فالعالم كله يعرف الحقيقة . من نحن ؟ العالم الثالث ، الذى نحن الآن فى دركه الأسفل . سنأتى لهذا فقط كجملة اعتراضية صغيرة، التخلف فى حد ذاته ليس عيباً ، معظم العالم متخلفون وفى جميع العصور، العيب هو أن نستكين لهذه الحقيقة بل أن نتفاخر بها مظهرين ما لديهم من "مادية" و "فساد" ــ بل وندعو إلى مزيد من التخلف ، الذى يعنينا من هذا هو موقع يهود "الاشكنازى" من هذا كله .

يهود الشتات وجدوا أنفسهم أقلية فى أوربا وأمريكا طبعاً ، ويهمنا هنا أن ندرك مغزى أن يكون الفرد يهودياً، أنها ليست مجرد ديانة كالإسلام أو المسيحية أو البوذية ، يمكنك أن تعتنق أياً من هذه ، وبالطبع فإن ملايين لا تحصى من البشر دخلت فى هذه الديانات، ولكنك لا تستطيع أن تصبح يهودياً (هناك خلافات بهذا الخصوص بين حاخامات اليهود والسلطات الإسرائيلية) ــ لابد أن يولد اليهودى من أم يهودية يمتد نسبها لغاية يعقوب عليه السلام ، ابن اسحق ابن سيدنا إبراهيم ، أبى الأنبياء .

تختلف الأقليات فى سلوكها ، ولكن العجيب فى أمر اليهود هو أنهم أقلية من نوع لا مثيل له ، فهم يعتقدون أنهم جميعاً من نسل يعقوب ، ونظن أنهم لو مضوا يتناسلون فى دائرتهم المغلقة لكانوا قد هلكوا من العيوب الوراثية ، وواضح أن اليهودى الألمانى يبدو ألمانياً واليهودى اليمنى يبدو يمنياً والحبشى أيضاً حبشياً . ما علينا، يمكنهم أن يزعموا أن هذا أتى من التزاوج مع الأجناس الأخرى، لو أن إمرأة يهودية تزوجت رجلاً اسكندنافيا مثلاً فسيأتى نسلها نصفهم من العنصر السامى والنصف الآخر من الآرى ،

وهكـــذا ، ولكنهم يظلون يهوداً ولهم الحق فى جنسية إسرائيل فى مواجهة الاضطهاد المستمر ، والذى من أمثلته محاكم التفتيش مثلاً التى شنت فى أواخر القرن الخامس عشر حملة إبادة ضد المسلمين والـــيهود فـــى إسبانيا ، والتى تمثل واحدة من أبشع البشاعات فى تاريخ البشرية والتى تدل على أن فظائع اليهود كما هى واردة فى الـــتوراة ليست اختراعاً يهودياً يقتصر عليهم ، تاريخ البشرية كله ـــ للأسف ـــ فظاعات وإن كانت البشرية قد تقدمت خطوات هائلة وعظـــيمة فى القرن العشرين ، وإن كره المؤمنون! وسوف نأتى لذلـــك فى سعينا نحو إقرار الحقائق . والمفارقة التى لا مثيل لها هو أن اليهود المضطهدين فى إسبانيا وجدوا ملاذاً فى ظل الخلافة الإسلامية فى تركيا ، مما أدى إلى ظهور طائفة "الدونما" المعروفة فى تاريخها ؟

الذى يهمنا من كل هذا هو :

(١) موقـــف روسيا والشعب الروسى من اليهود لا يختلف فى شـــىء عـــن بقية شعوب أوربا ، حوادث القمع على مدى القرون تواجـــه من جانب اليهود بالامتياز فى المعرفة والعلوم والفنون ، خصوصـــاً فى القرن العشرين ، وأيضاً بالسعى إلى السيطرة عن طـــريق المال كسلاح أمضى من كل أبيض هندى ، وتاريخ أسرة روتشيلد معروف جيداً .

(٢) عندما قامت الثورة البلشفية شارك فيها يهود روسيا بأوفى نصـــيب، بـــل كـــان مـــنهم زعماء و "أنبياء"، على رأسهم ليف دافيدوفتش برونشتاين ، الذى كان اسمه الحركى ليون تروتسكى. وظل اليهود على قمة الحزب الشيوعى لهذه اللحظة. وعندما قامت حركة الانشقاق التى أدت ـــ مع عوامل أخرى طبعاً ـــ إلى سقوط الاتحاد السوفيتى والشيوعية كلها، كان قادتها كلهم من اليهود، على رأسهم عالم الفيزياء وأبو القنبلة الهيدروجينية أندريه ساخـــاروف

(ساخاروف يعنى زكريا بصيغة الجمع).

(٣) صحيح أن اليهود كانوا طيلة الوقت مكروهين فى كل أنحاء أوربا والعالم المسيحى ، وصحيح أن الطائفة الكاثوليكية بصفة خاصة تصب نقمتها عليهم والكثيرون من المنتمين للمسيحية ــ التى هى الديانة التى تسود الجزء المتقدم والقوى من العالم ــ يحملونهم مسؤولية الوشاية بالمسيح وبالتالى إعدامه على الصليب، إلا أن هذه الكراهية لا تأتى من عشق المسلمين. إذا دخل هؤلاء فى الحلبة فأنا وابن عمى على الغريب . ومرة أخرى ، الجهل بحقائق التاريخ ــ وعلى رأسه ثلاثة قرون طويلة من الحروب الصليبية التى كانت تستهدف تحرير القدس واستخلاصها من قبضة المسلمين ــ الجهل بهذا التاريخ يمكن أن يعجز الإنسان عن التفكير الصائب فى هذا الموضوع .

(٤) الحرب العالمية الثانية كانت صراعاً بين أيديولوجيات الفاشية والماركسية والديموقراطية. هذا واضح. إلا أن هذه الأيديولوجيات كلها وليدة الفكر الأوربى، وبذلك فإن تلك الحرب تختلف كثيراً عن الحروب بين المسلمين والروم مثلاً والتى لك أن تعدها حسمت بسقوط الخلافة بعد الحرب العالمية الأولى، ولك أن تعدها مستمرة للآن .الحرب العالمية الثانية إذن برغم ضراوتها وفظاعتها التى تأتى من أنها كانت صراع الجبابرة ــ وبرغم ما هو منسوب للألمان فى حق يهود أوربا ــ لم تكن عداوة مريرة بين شعوب القارة، بل مجرد صراع بين أنظمة الحكم، وما عليك إلا أن تتأمل الخريطة الإجتماعية والسياسية لأوربا الآن، ستجد ألمانيا وفرنسا فى حالة سمن على عسل، روسيا بعد انتهاء أغبى نظام للحكم والإدارة وأكثر النظريات السياسية فساداً وبهيمية، تتمنى أن تلحق بهذا الركب طبعاً وتدخل الاتحاد الأوربى، فهم شعب أوربى وأيضاً يهو ــ مسيحى، وسبعون سنة من تجربة مقيته لم تغير فيهم قيد أنملة، والذى يظن أن الاتحاد السوفيتى كان

قادتـــه يتمـــنون أن تنتصر مصر أو العرب (إذا كان هناك كيان سياسى اسمه العرب) على إسرائيل ، يكون واهماً .

(٥) مجـــئ الـــيهود إلى فلسطين إلى جانب كونه نتيجة للفجوة الحضـــارية، فهو أيضاً فى جانب منه استمرار للحروب الصليبية التى امتدت من مطلع الألفية الثانية لغاية اللنبى ثم إلى الآن*.

لم يكن حاكم مصر واهماً فقط ، كان أسوأ من هذا بكثير . لقد جاء السوفيت إلى مصر ليبيعوا الترام، وهو ترام صدئ وخربان و "منـــيل علـــى عينه"، آسف لأنى لا أجد فى الفصحى تعبيراً أكثر صدقاً من هذا .

* هذا مع إحترامنا وتقديرنا لرأى البابا شنودة فى ان كلمة الصليبيين تسميه خاطئة ، وهو يـــرى أنهـــم يسمون "الفرنجة" إلا أن الكثير من التعبيرات يدخل التاريخ ويصبح نمطيا بتأثير الزمن . "الفرنجة" أيضا فيهم من لا علاقة لهم بالحروب الصليبية .

obeikandl.com

شراء الترام

الحكـــام ينخدعون ومصائر الشعوب هى الثمن ... صدق أبو العلاء المعرى :

يسوسون الأمور بغير عقل ∴ وينفذ أمرهم فيقال ساسة

الحكـــم والأمـــثال والتعبيرات الشائعة ، كثيراً ما تكون تعبيراً رائعـــاً عن الفكر الإنسانى وعن مقدرة البشر على التفنن والإبداع وإعمال المنطق.

ويبدو أن لدى المصريين قدرة تفوق المتوسط فى هذا المجال، واذكـــر أنـــه فـــى أعقاب يونية ١٩٦٧ ألقى الرئيس الراحل عبد الناصر أول خطاب طويل على الشعب ، ذكر فيه أنه يتفهم النكت التى شاعت بين الناس ، "لأنى منهم" ، هكذا قال .

أنا أيضاً منهم ، وكذلك أنت ...

بعض الحكم يبدو غير دقيق تماماً ، فهناك مثلاً : "عدو عاقل، خـــير من صديق جاهل" ، وأنا كنت طفلاً عندما سمعت هذا لأول مـــرة ، كـــان عنوان قصة قرأناها ، عن الدبة التى قتلت صاحبها وهـــى تحاول إبعاد ذبابة حطت عليه وهو نائم . وأذكر جيداً أننى ســـألت نفســـى بسذاجة الطفل : "كيف هذا ؟ إن أسوأ ما يمكن أن يبـــتلى بـــه الإنسان هو العدو العاقل ؟ " فقط عرفت بعد ذلك أن المـــرء قـــد يستخدم عقله هو أيضاً ليواجه عدوه ، وقد ينجو من شره، أما الصديق – جاهلاً كان أم عاقلاً ، فمن الطبيعى أن تهمل أن تحتاط من غدره أو غبائه. ومن هنا جاءت مقولة : اللهم احمنى من أصدقائى ، أما أعدائى فأنا كفيل بهم.

ويولع المصريون أيضاً بهذا التعبير : "إحنا أولاد النهاردة" .

وهم يستخدمونه بقصد حل الخلافات الأسرية والشخصية وإزالة آثارها من النفوس على أساس أن ما فات قد مات ، قد يصلح هذا الأسلوب فى مثل هذه المواقف، فقط عندما نأتى لإزالة آثار العدوان، بجميع أنواعها وبلاويها، فإن تجاهل الماضى لن ينفع فى شىء ، الواقع أن الماضى ، بل والبعيد منه ــ يتمثل أمام عيوننا ويعتمل فى نفوسنا ويحدد معالم حاضرنا ومستقبلنا معاً، ومن العبث ــ بل من السفه ــ أن نحاول أن ننساه أو حتى نصفح عنه، وإلا لما كان لكم فى القصاص حياة، يا أولى الألباب.

إن اللحظة التى نعيشها الآن ليست سوى الرقم التالى للرقم الذى كان منذ لحظة مضت، فى سلسلة طويلة من الأحداث الرقمية، ولو أن حدثاً واحداً وقع، وحاولنا أن نتصور أنه لم يقع، لتغير كل شىء فى هذه الحياة بالتأثيرات المطردة المتسعة النطاق.لا احنا مش ولاد النهاردة! إحنا بالتأكيد ولاد أول إمبارح .

فى تاريخ مصر ، كما فى تاريخ كل أمة قديمة ، كوارث رهيبة. قمبيز مثلاً ، قد يكون أول حادث غير وجه مصر بأن دمر روحها القديمة وأذل أهلها وأذاقها الهوان ، مما جعل شاعرها شوقى يكتب مسرحية بهذا العنوان، ثم الرومان ، وهم لا يقلون بهيمية وبربرية عن الفرس ، هؤلاء دمروا الأمة ووضعوا نهاية لها كدولة مستقلة ، منذ أنطونيوس وبعده أوكتافيوس ، أما الحركة غير المباركة ، التى حدثت بعد ذلك بألفى سنة ، وبرغم المماليك والعثمانيين ، فقد كانت هى التى دمرت الشعب هذه المرة ، بأن حطمت ما لديه من قيم وضيعت ما لديه من مال وغمرته فى التعاسة والهموم ، وعلمته أن الجهل أنفع من العلم ، والظلم أعظم من العدل ، والفتونة أرقى من الذكاء ، وأنه إذا كانت القيادة تتكون من البلطجية واللصوص والحشاشين والأفاقين ، فلا شك ستفضل من تطمئن إلى كتمانهم لأسرارها ، وهم أهل الثقة ، وليس إلى من يحترمون أنفسهم ويحسون أنهم ليسوا فى حاجة إلى اختطاف ما

لدى الآخرين ، لأنهم يستطيعون أن يكونوا مثلهم أو أفضل منهم، وهـؤلاء هم المنبوذون من أهل الكفاءة . وعندما نقول اللصوص والحشاشـين ، نحن لا نشتم أحداً ، فهذه الممارسات تحدثت عنها الصـحافة المملوكـة للدولـة ، لا صحافة العالم فحسب، تحدثت الصـحف عـن "قطعـة الأفيون التى كان المشير يلوكها" ــ يوم "انـتحاره" ، وكيف أن رئيس الأركان حاول أن يستلها من فمه ، وتحدثـت عـن شـخص كان رئيساً للوزارة ثم أصبح أميناً عاماً للتنظـيم السياسى ثم نائباً لرئيس الجمهورية بعد ذلك ، نسبت إليه الصـحف فيما يشبه البيان الرسمى ، إساءة استخدام المال العام ، والتهريب الجمركى ، وهى أمور كانت شائعة ومعروفة . ثم ماذا؟ لا شـيء ؟ ! لم يحدث تكذيب ولم يحدث أيضاً تحقيق ؟؟ إن كان هذا لا يعنى أن كبار المسؤولين وزعماء الثورة يحق لهم ممارسة النهب فما الذى يعنيه ؟ أفهم أن القتل والتعذيب كان لحماية الثورة ــ علـى طريقة روبسبيير وأمثاله ، وإن كانت الثورة ليست على الإطـلاق ثـورة كمـا قلـنا ، فالثورة تكون ضد السلطة وليس بواسـطتها ولا يتزعمها من فى يدهم كل السلطة . من ثائر على من ؟ إن كان هذا لا يعنى ذاك، فما الذى يعنيه ؟ ترى ما أثر هذا على الصراع العربى الإسرائيلى ؟ وعلى نظرة العالم إليه ؟

الماضى فى حياتنا :

الحياة ، سلسلة متصلة مستمرة من الأحداث، وكل حدث يقع فى موضـع مـن الزمـن والمكان ، ويكون تأثيره المباشر على من يوجـدون فـى هـذا الموضع ، ولكنهم عندما يتأثرون ، فإنهم ــ بدورهـم ــ يؤثرون على غيرهم من الناس والأشياء ، ويمتد هذا الأثـر كأنـه "لجة الماء يلقى فيه بالحجر" كما قال ابن الرومى ، وإلى جانب الانتشار فى المكان ، فإن الأثر يبقى على مدى الزمن،

تماماً كما يرسب هذا الحجر فى قاع البركة وتمضى القرون وهو ما يزال فى موقعه من هذا القاع .

تاريخ كل أمة سلسلة من هذه الأحداث ، تترك علاماتها فى كل موضع، وأحجارها فى أعماق كل نفس. إن الذى يراه العالم على سطح مصر هو الأهرام وتل العمارنة وأبو سنبل والكرنك ومكتبة الإسكندرية وآثارها الغارقة ، ثم مدينة الفسطاط و جامع عمرو، وآثار أحمد بن طولون وقلعة صلاح الدين وجامع محمد على ودار الأوبرا المحترقة ... والسد العالى ودار الأوبرا الجديدة ... هذه علامات تاريخ مصر التى كتب بها كما لم يكتب تاريخ أية أمة على وجه الأرض ، ولا عجب ، فمصر تجمع إلى "أمصار" ، وهى أول مصر فى تاريخ البشرية ، وأول دولة وأول حكومة وأول حضارة عظيمة فى حياة الإنسان ، ونصفها الجنوبى ، وهو مصر العليا ، اسمه "الصعيد" ، و هو مشتق من "ص ع د" ويرد فى الكتاب الكريم أيضاً بمعنى آخر هو التراب النقى، وذلك فى الآية : "فتيمموا صعيداً طيباً".

كل هذه الآثار والعلامات راسبة فى أعماق كل واحد فينا ، كالحجر الذى سقط فى اللجة ، سواء بوعى منا أو بدون وعى . كل واحد منا نتاج كل هذه الأحداث والآثار والحكام والمذاهب والعلوم والفلسفات ، ومن الأهمية القصوى أن نكون عالمين بهذه السلسلة من الأحداث ، خاصة ما هو قريب منها .

إن مشكلات حياتنا اليومية، ومستقبلنا كما سيأتى، تمتد جذورها فى تاريخنا القريب والبعيد، وإذا لم نعرف هذا التاريخ، فسوف نجهل هذه الجذور وسوف تستعصى علينا معالجة مشكلاتنا لأننا لا نعرف أسبابها، والمرض لا يتلاشى بإخفاء أعراضه، بل باكتشاف الجرثومة التى تحدثه ثم مهاجمتها بالعقار الذى يقضى عليها.

هذا هو موضوعنا . ما هى جذور مشكلاتنا الجارية وما الذى ومن الذى أنبت هذه الجذور ، وإلى أى حد يمكننا التوصل إليها

وما قدر ما يمكن اقتلاعه منها . والسياسى ورجل الدولة وأعضاء أجهـزتها ، إذا أرادوا أن يكونوا مخلصين لبلادهم فإن عليهم أن يقرؤوا تاريخها ويعوه جيداً لكى تكون معالجتهم لمشكلاتها مجدية ونافعة، وأساتذة التاريخ فى العالم المتقدم يلعبون دوراً أساسياً فيما يـتخذ من قرارات. وكان الرئيس الأمريكى الراحل جون كنيدى مولعـاً بقـراءة التاريخ وكان يحيط نفسه بحاشية من المؤرخين ، وعندما أقدم الرئيس السابق جورج بوش على عقد مؤتمر مدريد ، وهو ــ فى رأيى المتواضع ــ جهد كبير ورائع فى سبيل معالجة مشكلة الشرق الأوسط ضيعوه طبعاً ، تردد وزير خارجيته جيمس بيكر على المنطقة عدة مرات ، وذات مرة زار عمان ثم انتقل إلى القدس، وحرص على أن يقطع هذه الرحلة بالبر عن طريق جسر اللنـبى، قـائلاً إن هـذا سيمكنه من الحس بالمنطقة والعيش فى تاريخها، وقد كانت صيحة اللنبى: "لقد عدنا يا صلاح الدين" إيذاناً بحلقة جديدة فى مسلسل الحروب الصليبية ، ولا شك أن الأوربيين علـى جانـبى الحرب العظمى كانوا سعداءً جداً بهذا، الحلفاء من جهـة والقـوى المركزية التى كانت تحاربهم من جهة أخرى. بل أظن أن الجنرال الألمانى "فون كرسنشتاين" الذى كان يقود الجيش العثمانى فى فلسطين ، كان سعيداً بهزيمته . ولا شك أن الإنجليز أصحاب وعد بلفور وأصحاب الانتداب على فلسطين ، قرروا منذ تلـك اللحظـة ألا يـتركوا الأراضـى المقدسة تعود إلى سيطرة المسلمين بعد ذلك . وكذلك فإن فرنسا اقتطعت لبنان لتكون مأوى للطوائف المسيحية . ومعروف جيداً أن العثمانيين لم يكونوا قدوة للعالم فى معاملتهم لتلك الطوائف.

ولـو أن حكـام الـدول العربية فى النصف الثانى من القرن العشرين، ورجال الدول فيها، كان يعرفون قدراً كافياً من التاريخ ، منذ فتح بيت المقدس على يدى الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، إلى قرون الحروب الصليبية، إلى سقوط مملكة أورشليم فى

عصـــر الظاهر بيبرس، إلى خضوع المنطقة كلها للعثمانيين، ثم حملة اللنبى، ثم إنشاء دولة إسرائيل الحديثة، لو أنهم كانوا يعرفون هـــذا جـــيداً لكانت نظرتهم إلى المشكلة قد اختلفت كثيراً ولكانوا أدركوا من بالضبط يحاربون عندما يحاربون إسرائيل وما جدوى مـــثل هذه الحرب ولعرفوا لماذا حدث بعد انتهاء الحرب العالمية الثانـــية، لماذا حدث أن كان تقسيم فلسطين وإنشاء الدولة اليهودية هـــو الشـــىء الوحيد الذى اتفقت عليه القوتان العظميان برغم ما بيـــنهما من عداوة مريرة ورعب قاتل متبادل، وظلتا تتفقان عليه إلـــى يومـــنا هذا حتى بعد أن تحول الاتحاد السوفيتى إلى روسيا الاتحادية بكل ما لديها من مشكلات ومتاعب.

إن أى بلد فى الدنيا، هو ملك لشبابه لا لشيوخه، فنحن راحلون، نحـــن الشـــيوخ، وعلينا أن نترك لشبابنا بيئة تصلح للحياة. كل ما يعانـــيه شبابنا اليوم من ضنك ويأس وما يرزحون تحته من أثقال الحياة، كل هذا ليس وليد السنة الماضية ولا التى قبلها، أنه يرجع إلـــى عشـــرات كثيرة مضت من السنين. وهذه هى أهمية النظرة التاريخـــية، أن نعـــرف من أين جاء هذا. إن فى هذا العالم أماكن تعانى من آثار حروب دارت فيها منذ مئات من السنين ، محاولة تحســـين الأحوال تبدأ بدراسة تاريخها وجذور المشكلات المتمثلة فـــيها، لأنـــه علـــى مستوى الـــ "ماكرو"، أى المستوى العمومى، الواسع النطاق، يستغرق الأمر وقتاً طويلاً، ومن هنا فلا غنى عن النظرة التاريخية .

أمس واليوم :

شـــبابنا يـــرون فى مصر الآن دولة ومجتمعاً يختلفان إلى حد هائل عما كانا عليه عندما كنا ــ نحن العجائز ــ ما نزال شباباً.

تتصف مصر الآن بهذه العلامات :